أخركل الأشياء

دار الكنزي للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

محمد صلاح شديد

المدير العام

إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

مدير النشر

مهند يحى

الكتاب : أخر كل الأشياء
تأليف : أحمد محمد زويل
تصنيف الكتاب : رواية
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٩٤٩٢ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 2 - 50 - 6660 - 977 - 978

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

جميع الحقوق محفوظة

أخركل الأشياء

رواية

أحمد محمد زويل

مَنْ يستطيعُ الحب بعدك ؟ من سيشفى من جراح الملح

بعدَكَ ؟ في زواج البحرِ والليلِ استدار القلبُ نحوك

لم يجدنا . .

محمود درويش

-١-

(سلوى)

أحـلام طفولتهـا وصباهـا، خيـوط ذكرياتهـا، وقـود اختزنتـه وحكايـات ترويهـا هـي بطلتهـا وهـي مـن سـتصنعها، وهـي التـي حافظـت عـلى اسـتقامة ظهرهـا وبريـق عيناهـا ورأسـها المرفـوع أثنـاء تلاوتهـا عـلى أصدقائهـا بموائـد العشـاء وزملائها بالعمـل فـترة الاسـتراحة، بعـد كل فنجـان قهـوة بموعـد غرامـي، وبأيـام صداقـة عابـرة انتهـت بقعـر النسـيان، وكل مـن راق قلبهـا لـه يومًـا، تـدرك اليـوم أن هـذا كلـه ليـس إلَّا هـراء قابـع بالسراديـب، حـبر ملطـخ عـلى الصفحـات الأخـيرة بالدفاتـر، وغبـار يُكنـس بنفحـة هـواء.

كان عليهـا التصديـق بنهايـة الأمـر أن الحلـم وحـده ليـس كافيًـا، وأن حياتهـا اليـوم قـررت أن تتوسـد كتـف الواقـع وتغفـو للأبـد، فـارس يمتطـي صهـوة حِصـان أهـوج فـلا واجهـة لـه ولا نقطـة رجـوع.

فستان العُرس يسطع كالقمر في ساعة خُلق خصيصًا لها ليخفي انطفاء من ترتديه، البذلة السوداء ترفع أكتاف الموعود وتعده بالوسامة، سيارات البيجو البيضاء المزينة بالورود تزأر محركاتها شوقًا لابتلاع الطرق، حنجرة المطرب رخيص الأجر تكرر اغان ملت الشدو، الضحكات بالمسرح الزائفة منها والحقيقية، التصفيق المستمر والسجائر التي تُعتصر ويرتفع دخانها فوق الرؤوس بالكراسي الأخيرة.

شردت محدقة بصورة زيتية مرسومة بإحدى الزوايا تُظهر كوشة وعروسان، ولدقيقة تسألت هل ما فعلته هو الصواب؟ احيانًا يفعل المرء ما لا يفكر به، يقوده العمىّ ليفتح عينه على حياة مختلفة ليست جيدة بالضرورة، لا يفيق المرء مبكرًا والا لما خُلق الندم، الزواج نوع من الرهانات على أي حال، حِصان يعدو فوق مِضمار سباق، النوم بجوار سائق على الطريق السريع، نظرت لمجاورها رأفت - السائق المختار- موظف بإحدى الشركات الحكومية، بدين ذو عوينات سميكة، جبين لا يكف عن التعرق، وعينان ذابلتان، وقد قبلت الرهان بسن الثالثة والعشرين، يافعة ذات جسد قارنته صديقاتها بجسد عارضات الأزياء بمجلة أخبار النجوم، وعقل انهت به سنوات دراستها بالثانوية متفوقة على اذكى زميلاتها بعشر درجات كاملة.

تسللت كفه لكفها كالثعبان، شعرت ببرودة جلده: «هل أنتِ بخير؟». سألها.

أومأت برأسها وسحبت أصابعها بهدوء وابتسامة.

مضت الليلة سريعًا، أغلق عليهم باب منزلهم الجديد بمنطقة سيدي بشر بعد الزغاريد والمباركات، اخرج رأفت منديلًا قماشيًا ومسح جبينه المتعرق، دسه بجيب البذلة، اقترب منها وحاوط خصرها بيداه، قَبل رأسها وعيناها لا تفارق السجاد، قال بصدق وأنفاسه تسابق دقات قلبه: «أنا سعيد للغاية».

ابتسمت، وتأرجحت مقلاتاها ما بين وجهه والأرض: «هل يفترض بنا.. الليلة.. إنني!».

-«سأتركك تأخذين حمامكِ، لقد كان يومًا مرهقًا على كل حال». مسح على رأسها بأصابعه فتلمس حريرها، وابتعد خطوتان.. خلع رابطة عنقه وألقى بها على الطاولة، ورمى بجسده فوق الأريكة، تنهد: «ما رأيك بالخروج غدًا للسينما؟».

-«حسنًا، لا بأس».

-«جميل.. سأنتظرك بغرفة النوم ريثما تنهين حمامكِ».

-«رأفـت.. هـل يمكنني النـوم الليلـة؟.. أنـا مُتعبـة!». سـألته وعيناهـا لا تبتعـد عـن عينـه.

ضحـك فـبرزت أسـنانه الصفـراء، خلـع عويناتـه: «لـكِ مـا تريديـن.. أعتقـد أنـي سـأنام هنـا الليلـة». ضرب بكفـه عـلى الاريكـة وأضـاف: «أنـا لا أريـد إلَّا راحتـكِ».

غمرتهـا الميـاه، غسـلتها كـما تغسـل المذنبـين، وقـد وجدتهـا فرصـة مناسـبة للتنفيـس عـن مـا بهـا بالطريقـة الوحيـدة التـي تعرفهـا.. البـكاء..

***

(أحمد)

أُخمـدت الأنـوار، غرقـت القاعـة في الظـلام، بـدأت الأيـادي تتشـابك، أحدهـم قـرر اخـتراع كامـيرات الرؤيـة الليليـة فأفسـد عـلى المتحابـين نشـوة تبـادل القبـلات. كان مرتخيًـا عـلى مقعـده، يقـرأ أسـماء أبطـال العمـل ببطاقـة الفيلـم المعروضـة عـلى الشاشـة حـين انتبـه إلى أن المـوت لم يعـد يـزور أحلامـه، لا يقفـز بعقلـه كـما اعتـاد حـين يعـبر شـارعًا أو يسـتقل حافلـة، لم يعـد محـور حديثـه أو موضـوع يدونـه بالدفاتـر الرخيصـة.. صـار يبـذل مجهـودًا كـي يقحمـه بحكاياتـه، وكأنـه يفتـش عنـه داخلـه دون أن يجـد ذرة خـوف منـه..

تأبطـت رنـا ذراعــه، بـرودة عـرق ابطهـا لامـس جســده، التفـت تجاههـا، عينـان تلمعـان، ابتسـامة لا تغـادر شـفتاها، ذات وجـه ملائكـي - هكـذا قـال عنهـا سـابقًا - ابتسـمت وقالـت: «سيُعجبك الفيلـم، أنـا واثقـة مـن اختيـاري».

-«أكيد! أنا واثق أنه سيكون فيلمًا رائعًا».

-«أتمنـى ذلـك أشـعر احيانًـا انـك مـن النـوع الـذي لا يعجبـه شيء». قالــت ســاخرة.

-«لماذا؟».

زمـت شـفتاها وعلقـت كتفيهـا بالهـواء: «لا أعـرف.. ربـما أنـا عـلى خطـأ». ثـم اسـندت رأسـها عـلى كتفـه وشـدت عـلى ذراعـه وتنهـدت..

بـدأت أحـداث الفيلـم، وبـدأت قاعـة السـينما تتفاعـل مـع مشـاهده، أمـا عنـه فقـد كان غارقًـا في تذكـر قسـمات وجـوه مـن رحلـوا، افعالهـم، مـا يحبـون ومـا يكرهـون.. صورهـم ترفـض التجسـد بطريقـة مـا داخـل رأسـه مـن المحاولـة الاولى، ببـطء وبعـد النبـش بالذاكـرة، كـما تتشـكل الغيـوم.. تسـتجيب الصـور، تُخلـق المشـاهد ولكنهـا لا تكتمـل، عيناهـا دامعتـان.. تركـض ويركـض خلفهـا، يناديهـا فـلا تسـتجيب، يكـرر النداء، مـرات ومـرات.. قبـل أن يقـف مدهوشًـا..

رنا تبكي، تسحب مخاط انفها بلا صوت، تشد عروق أصابعها وتلتقط الدموع قبل أن تفسد مساحيق وجهها، تبادل معها نظرة سريعة ثم عاد يحدق بالشاشة.

قالت رنا في حماس فور خروجهم من القاعة: «إنه فيلم رائع!».

-«جدًا..».

-«هل أعجبك فعلًا؟». تبطء خطواتها وتحدق بوجهه.

-«ماذا؟». يسألها وقد توقفت عن الحركة، أضاف مصلحًا ما قد يفسد: «إنه فيلم رائع فعلًا.. الأسبوع المقبل سأترك لكِ اختيار الفيلم القادم مرة أخرى».

ابتسمت، ظهرت حبيبات العرق حول عيناها بلون المساحيق: «حقًا؟ تقول الصدق؟».

-«طبعًا!».

فقط توقفي عن الكلام قليلًا! يقول في نفسه!

-«لحظة! وهل كنت تتوقع أن أتركك تختار فيلم الأسبوع المقبل؟ يكفينا فيلم الأسبوع الفائت».

-«قلتِ إنه أعجبك!».

-«كنت أكذب.. أحمد.. هل نحتاج لتاكسي، الطريق طويل».

تاكـ(س)ــي، لقـد بصقـت قطـرة مـن مـاء فمهـا في نطـق حـرف السـين! ورغـم قلـة تركيـزه إلَّا أنـه قـد لاحظهـا!

-«فليكن». قال ووقفا بانتظار سيارة أجرة..

تجـاوزا منتصـف الليـل حـين توقفـت سـيارة الأجـرة، تبادلا قبلتـان بباحـة بنايتهـا قبـل أن يودعهـا.. توقـف عندمـا تجـاوز شـارعها وبصـق ثـم أشـعل سـيجارة ليطـرد مـا تبقـى منهـا بـه!

يقـول صديقـه خالـد أن نسـيان الأمـوات هـو خـبر جيـد أمـا الخـبر السـيء فهـو أنـه بـدأ يشـمئز مـن رنـا.. أمـا عـن خالـد نفسـه فقـد كان صديقًـا مـن النـوع الـذي لا يفـارق (لي) الشيشـة فمـه، كخراطيـم الأكسـجين للغواصـين، طويـل كلاعبـي كـرة السـلة، نحيـل الوجـه كالمـرضى، حليـق الـرأس كالجنـود، حـاد وقاسـم كالقـدر، ذو انـف طويـل وعظـام بـارزة كفـروع الأشـجار، ضاقـت عينـاه وأردف ملوحًـا بـلي الشيشـة في وجهـه: «هـذا ليـس بالوضـع الجيـد لـك».

-«نعم.. أعرف».

-«تعـرف ايضًـا انـك خطيبهـا، وأنـك مـن اخترتهـا مـن البدايـة.. إذن مـا الـذي يحـدث لـك؟».

زفر أحمد بملل ثم لوى شفتاه.

-«أنهـى خطبتـك إذا كنـت تشـعر بتلـك الأشـياء الغريبـة، لا تلهـو ببنات النـاس!».

-«لا ألهو بأحد.. ربما أبحث عن سبب منطقي فقط».

-«لا يمكنك أن تتركها لأنك تشعر بعرق إبطها وترى بصاقها ولأن مساحيق التجميل تتكور على وجهها.. أليس هذا ما تود قوله؟».

-«نعم.. أن هذه الأسباب ليست إلَّا هراء».

اعتدل على كرسيه وطقطق عظام ظهره: «لم تعد تحبها.. أن كنت تحبها فلن ترى فيها ما ينفرك».

***

(نور)

أنهت سيجارتها، دهستها بالمنفضة، أزاحت الدخان المتطاير حولها بحركات عصبية، لم تعد أم كلثوم من الأصوات المحببة لها، باتت مملة ومزعجة وذات ثقل لا يتحمله صدرها، حالها كحال جميع من غنا للحب يومًا، الأغاني الرومانسية هي السخف ذاته قبل أن تُحب، وهي الصوت الأوحد حين يأكل الغرام قلبك.. صمت أذنها بسماعات هاتفها، إنه الوقت المناسب لتبديل الرتابة بالسرعة، القديم بالجديد، الخمس وأربعين دقيقة بخمس دقائق كحد أقصى، (انريكي اجلاسيس) - (ميتالكا) - (لينكين بارك). أي موسيقى تنتهي قبل إنهاء قهوتها.

لا تملك نور الكثير لتفعله قبل مجيء حسن، فقط عليها انتظاره وما من شيء أكثر مللًا بالنسبة لها أكثر من الانتظار، لم تكن تحب القراءة ولم تقرب كتابًا يومًا عدى كتبها الدراسية قبل التخرج وبعض الروايات التي لم تكملها يومًا، إنها فتاة من النوع الذي تستمتع بكل ما هو مرئي ومسموع فقط، ملولة لأقصى حد، ذات طباع حادة أحيانًا وجافة دائمًا.

نزعت سماعات الأذن ودستها بحقيبتها حين رأته، حسن.. الشرطي كما قال الكتاب، الشارب والشعر الخفيف والجسد الطويل المفتول بالعضلات، سجائر المارلبورو، الحركة اللاإرادية في إظهار المسدس من تحت معطفه قبل الجلوس، لو أن هناك كتابًا يصف الشرطي فلن يتردد كاتبه بوضع صورة حسن كغلاف له، حك ذقنه الحليقة مرتين أو ثلاثة: «أسف على التأخير».

-«لا تهتم».

أراح ظهره على الكرسي وطلب الشاي من النادل قبل أن يسأله الأخير، أشعل سيجارة: «والآن يا نور.. ها أنا هنا، لماذا استدعيتني؟».

-«تسمي لقاءنا استدعاء..». ابتسمت بسخرية: «هل يمكنني؟». أشارت لعلبة سجائرها.

هز رأسه نفيًا وعاد يثبت عيناه صوبها.

زفـرت، اغمضـت عيناهـا واسـتجمعت قواتهـا، وقالـت: «لقـد جئـت بـك اليـوم.. اسـتدعيتك كـما تقـول.. كـي ننهـي كل شيء بالطريقــة الصحيحــة».

ساد الصمت للحظات.

-«هل تسمعني؟». قالت.

اعتصر سيجارته وأطلق الدخان: «عن أي شيء تتحدثين؟».

-«خطبتنا».

-«إنهـا المـرة الثالثـة التـي تتحدثـين فيهـا عـن الشيء نفسـه.. أولم ننتهـي مـن تلك الأسـطوانة؟».

-«المرة الثالثة.. إلَّا يدل ذلك على شيء بالنسبة لك؟».

-«لا يدل عن شيء».

-«بـل يـدل عـلى أننـي انتهيـت مـن تلـك العلاقـة.. حسـن أنـت رجـل رائـع ولكننـي ببسـاطة لا أسـتطيع!».

انـزل النـادل الشـاي، وبـدأ حسـن يذيـب فيـه ملعقـة واحـدة مـن السـكر، ومـع صـوت تخبـط الملعقـة بالكـوب سـألها: «هنـاك أحـد آخـر؟».

-«لا آخـر ولا أول، انـت تعلـم رأيـي مـن البدايـة.. وتعلـم أننـي مرغمـة، ومـع ذلـك فأنـت تسـتمر في تلـك اللعبـة».

-«لعبـة!». توقـف عـن تذويـب السـكر، حـك ذقنـه، ضاقـت عينـاه وأردف: «تعلمـين أنني الرجـل الـذي أحبـك في هـذه اللعبـة».

التقطـت سـيجارة في عصبيـة، ولاحظـت أن أصابعهـا ترتجـف، أشـعلتها: «وأنـا الطـرف الـذي يرفـض هـذا الحـب.. أرجـوك دعنـا ننتهـي مـن كل هـذا».

حـرك رأسـه عـدة مـرات في غضـب: «اتركـي سـيجارتك ولنرحـل، سـأوصلك إلى بيتـك».

-«هل يمكنني الرفض؟».

-«بالطبع.. ولكنها ستكون المرة الأخيرة على كل حال».

أخفضـت رأسـها لثانيـة، تركـت سـيجارتها وهمسـت لـه: «انتهينـا؟».

-«انتهينا».

***

(لاشين)

سـاعتان تفصـل بينـه وبـين مطـار هيثـرو بلنـدن، النهـار يلـوح بالأفـق والغيـوم تسـبح تحـت الراكبـين، أزال غطـاء النـوم مـن فـوق عينـه وفركهـا مرتـين، أسـند رأسـه عـلى الكـرسي واستسـلم لحقيقـة أن النـوم بـات مطلبًـا مسـتحيلًا.

لقد أيقن بعد ساعات على متن الطائرة إنها أكثر الأماكن مللًا، لا وسائل كثيرة للتسلية، بداية من مراقبة النائمين وانتهاءً بالأفلام والأغاني المُخزنة بشاشة العرض أمامه.

اقتربت منه المضيفة، وقد كانت سيدة شقراء في أواخر العشرينات ذات عينان بُنيتان وابتسامة تكشف طابور اسنان غير متساوٍ، سألته بإنكليزية دقيقة: «هل كل شيء على ما يرام؟».

-«نعم، أنا بأفضل حال». ابتسم.

انحنت نصف انحناءة وأردفت: «لم يتبقى الكثير، أتمنى أن تستمتع برحلتك».

-«أستمتع بالطبع كما ترين».

ابتسمت بمهنية، وأكملت في رحلة اطمئنانها على الركاب، ولم يستطع منع نفسه من مراقبة طريقتها الفريدة في السير مضمومة الأصابع محافظة على تخشب عمودها الفقري.

-«هذا ليس بالتصرف الجيد داخل الطائرة». قال الجالس بجواره، التفت له، وقد كان رجلاً في منتصف العقد الثالث، ذو عوينات رفيعة وشعر قصير أسود، قطعًا لم يراه أحد إلَّا وقال عنه أنه يعمل في إحدى شركات الحاسب الآلي، لقد كان من هؤلاء الذين خُلق وجههم ليجلس أمام شاشة ما.

-«عفوًا؟».

-«قلت لك إنه ليس بالتصرف الجيد.. نعم لا تلتفت حولك! أتحدث إليك».

-«حسنًا.. وماذا فعلت؟».

انحنى تجاهه وقال: «لقد كنت تحدق بمؤخرة المضيفة.. لقد رأيتك!».

ضاقت عيناه وهز رأسه نفيًا: «لا.. لم أفعل هذا».

-«نعم بالطبع ستنكر ما فعلت.. ليس لأنك كاذب». أخفض صوته وأردف: «بل لأنها مثيرة حقًا!».

انفجر ضاحكًا.. وضحك لاشين بدوره يتابع المجنون، مد الغريب يده، وقال: «ريغان براين.. مصور فوتوغرافي».

تناول كفه: «يمكنك مناداتي لاشين».

-«لن تجد من يمزح معك عندما تغادر تلك الطائرة، لندن باردة وكئيبة كالأموات، ولكنني لست منهم يا.. لاسين!».

-«لاشين!».

-«لا شَان!». تهجائها ولم يُفلح!

-«حسنًا، هذا لا يهم.. هل أنت من سُكان لندن استاذ براين؟».

نزع عويناته وبدأ يمسح عدساتها بمنديل ورقي: «يمكنك قول هذا، ولكنها ليست أحب الأماكن لقلبي لقد ولدت فيها وهذا كل ما في الأمر». أعاد العوينات فوق أنفه وسأله: «أنت مصري؟».

-«أجل من الإسكندرية تحديدًا».

-«ولماذا لندن؟».

-«زيارة لخالي، إنها زيارة قصيرة، انه يقطن بالقرب من شارع ادجوير، شارع العرب».

-«اتواجد هناك كثيرًا، كنت احب مذاق ذلك الاختراع المسمى الشيشة قبل أن قرار منع التدخين في الاماكن العامة.. في الحقيقة اول شيء فعلته عند زيارتي للقاهرة هو الجلوس بإحدى المقاهي وطلبها هي على وجه الخصوص».

ضحكا ثم بدأ يعرض عليه بعضًا من الصور التي قام مؤخرًا بتصويرها على الكاميرا الخاصة به..

***

-٢-

(سلوى)

استيقظت في الظهيرة، ومسحة من الكآبة صُبغت على ملامحها حين بدأت تسترجع الأحداث تباعًا فوق سريرها، وفاة والدها المفاجأة بنوبة قلبية، وعجز والدتها عن العمل، دوام يومي بإحدى مصانع الملابس يكفي احتياجات طالبة أنهت الثانوية وتخلفت عن اللحاق بالجامعة..

رأفت، الرجل الذي رآها عصفورًا ناضجًا فجمع القّش واصطحبها لتشاركه عُشه، لم تكن لدى سلوى خيارات كثيرة، تؤمن بها يمكن للمرأة أن تصنعه، قرأت لفرجينيا وولف وأجاثا كريستي، قرأت عن أميليا إيرهارت المرأة الاولى التي تطير منفردة فوق المحيط الاطلسي، كليوبترا وقدرتها على تغيير مجرى التاريخ، روزي ريفيتر والتي احتفظت بصورة لها تشد فيها معصمها رمزًا للقوة النسائية.. أيقنت أن المرأة لم تُخلق لتظل تحت جناح رجل، ما خُلق من ضلع آدم لم يُخلق بالأحرى لآدم..

يصفعهـا الواقـع كـما صفـع ذواتهـا سـابقًا، في مقابـل كل روزي ألــف سـلوى!

تحممــت، مشــطت شــعرها، فرشــت أســنانها وكحلــت عيناهـا عـلى الحـان شـخير زوجهـا الـذي نـام بنصـف ملابسـه عـلى الأريكـة، أعـدت فطـورًا بسـيطًا وأيقظتـه، غسـل وجهـه وجلسـا متقابلـين عـلى الطاولـة، أمسـكت بكـوب الشـاي بكلتـا يداهـا وشردت كـما صـارت دائـمًا..

-«هل أنتِ بخير؟». يطمئن للمرة الألف.

هـزت رأسـها عـدة مـرات وابتسـمت: «نعـم.. القليـل مـن الصـداع فحسـب».

-«هل ستأتي أمك لزيارتنا اليوم؟».

-«قالت لي إنها ستأتي بعد أسبوع».

-«إذن يمكننـا الذهـاب للسـينما اليـوم.. شـمس الزنـاتي يُعـرض، قالـوا إنـه مأخـوذ عـن فيلـم العظـماء السـبعة».

-«لا أعرف.. ربما بالمساء يمكننا أن نقرر».

-«لقـد أحـضرت شيء لـك». نهـض مـن جلسـته وقبض على حقيبـة بلاسـتيكية وأكمـل: «اسـتيقظت باكـرًا واشـتريت لـكِ هـذا». وضـع الحقيبـة أمامها عـلى الطاولـة، تركت كوب الشـاي ونظـرت لـه، غمـز لهـا وارتشـف كـوب الشـاي دفعـة واحـدة.

فتحت سلوى الحقيبة والتقطت منها مجموعة قصصية لفيرجينيا وولف، ابتسمت في خجل: «من أخبرك إنني أحبها؟».

-«أول مرة رأيتك فيها كنتِ تحملين كتابًا، أمعنت النظر والتقطت اسم الكاتبة، أعرف أنكِ تحبين القراءة، وأعرف أنك ستمضين اكثر الأوقات في المنزل لذا فأعتقد أن هذا هو الحل الأمثل لتمضية الوقت».

نظرت له بشيء من التعجب: «أمضى أكثر أوقاتي بالمنزل.. ما الذي تقصده؟».

-«هل تفكرين بالعمل؟».

-«ولِمَ لا؟».

ضحك: «لم أعارض.. ولكنه أول يوم لنا متزوجين وتفكرين بالعمل!».

-«نعم، وما المانع.. رأفت أريد أن أساهم بدور ما في المجتمع». واستحضرت صورة روزي ريفيتر تشد على ساعدها.

تنهد وشرد بتفكيره لثوان: «حسنًا.. لا مشكلة، سأبحث لكِ عن عمل ما يناسبك». ضحك وأكمل: «هذا حال قراء فرجينيا وولف إذن!».

شكرته، وهم بتقبيلها ولكنها أوقفته: «هل يمكنني..!».

ابتسم وربت على كتفها: «لا عليكِ، لديكِ كل الوقت».

***

(أحمد)

كان ينام لساعات طويلة، فاختلط الليل بالنهار والضوء بالظلام، لم يعد للطعام مذاق، بات وقودًا لسيارة مهترئة، لا شيء يثير اهتمامه، لا شيء يجذبه، لا شيء ينفره! لم تكن مباريات كرة القدم تثيره كما كانت تدب الحماسة فيه سابقًا، كان يشاهد المباريات مع صديقه خالد من وقت لأخر ويتفاجأ بأن لاعبًا قد اعتزل منذ زمن وأن هناك وجوه جديدة تحتل الساحة حاليًا، كان الوقت يمضي بسلام دون أن يدفعه أو يؤخره خطوة..

استيقظ على صوت ارتطام يتبعه آخر..

غسل وجهه وأشعل سيجارة ثم نظرت عبر النافذة على الشارع، كانت سيارة نصف نقل تُفرغ ما بها من أثاث أمام باب العمارة، وحفنة من الرجال ينقلونها عبر السلم، توقفت سيدة في الخمسين تشكر الرجال بصورة مستمرة، اقترب منها احدهم ثم همس بشيء ما لها.. تذبذبت حركاتها قبل أن تنظر تجاه أحمد، أغلق النافذة وعاد لسريره.

-«تُدخـن قبـل الفطـور!». قالـت أمـه عندمـا زحـف الدخـان لغرفتهـا.

-«آسف!». قال بصوت مرتفع..

وسـمع خطواتهـا تقـترب مـن غرفتـه: «قلـت لـك مئـة مـرة لا تدخـن عـلى معـدة خاويـه».

دهـس سـيجارته بالمنفضـة، توقفـت والدتـه عـلى بـاب الغرفـة وأردفـت: «اتصلـت بي والـدة رنـا أمـس.. تقـول إنكـم تأخرتـم لبعـد منتصـف الليـل».

نهض واستجمع ملابسه: «وما المشكلة؟».

-«كلام الناس!».

ارتـدى بنطالـه ووضـع قميصًـا فـوق جلـده: «لم تسـتقر حيـاتي لأتزوجهـا الآن».

-«فقـط طلبـت منـي إلَّا تتأخـرا ثانيًـا.. لم تقـل شـيئًا عـن الـزواج أو غـيره».

-«كتر خيرها.. ثم انـ...».

قطع حديثه صوت فتاة تصيح بأحد ما خارج المنزل.

تسـاءلت والدتـه عـما يحـدث، وأخبرهـا عـما رأى، لـوت شـفتاها: «أحمـد، رنـا تُحبـك وأنـت تحبهـا.. لا تفسـد علاقتـك بوالدتهـا مهـما حـدث.. مفهـوم؟».

عادت الفتاة بالخارج تصيح مجددًا..

-«هل علينا أن نرى ما يحدث؟». سألته.

-«ربما يمكننا انقاذ المسكين قبل أن تبتلعه تلك الفتاة!».

اتجها للباب، فتحه أحمد ليلتفت له أحد عمال النقل الخارجين من الشقة المقابلة يردد بعض الشتائم ويبصق..

ثم خرجت فتاة تجلس على كرسي متحرك من باب الشقة لتصيح: «إياك أن تكسر شيئًا آخر أيها الغبي.. وإن حدث فمن الأفضل أن تذهب لأمك!». نظرت لأحمد بشيء من الفظاظة لثانية، ثم أردفت: «هل لديك مشكلة؟».

قالت والدته: «سمعنا صراخ يا بنتي.. خشينا أن يكون هناك مشكلة».

حدق أحمد بالكرسي للحظات، ثم عاد ينظر لها، حادة عيناها بخيطان رفيعان من الكحل يتطاير منهما الشرر، شعرها أسود أكثر من اللازم، وحلقة معدنية بفتحة أنفها اليُمنى.

قالت له: «هل هناك شيء؟».

-«نتأسف إذا كنا قد سببنا لكم إزعاج!». قالت سيدة على الدرج، وقد كانت نفس السيدة التي رآها أحمد تُشرف على عملية نقل الأثاث بالشارع.

ابتسمت والدته وقالت: «لا إزعاج، نورتم!».

مدت السيدة كفها لأمه وأردفت: «أنا أم نور وهذه ابنتي.. نور كما هو واضح.. سُكان العمارة الجدد». صافحتها وعرفتها على أحمد الذي هز رأسه وابتسم.. وأدارت نور عجلات الكرسي دون أن تلقي التحية وغابت عن الأنظار.

-«متأسفة إذا كانت نور قد تكلمت معكم بفظاظة.. إنها عصبية قليلًا.. ولكنها طيبة».

-«لا داعي للاعتذار.. إنها مثل ابنتي!».

***

(نور)

-«تعرفين أنني أحبك!». قال حسن دون أن يلتفت لها، كانت عيناه مثبتتان على الطريق أمامه ويداه فوق المقود.

لم تجبه نور، أو بالأحرى لم تجد ما تقوله، هناك لحظات يكون فيها الصمت أبلغ في إيصال المعنى.

-«تعرفين أنني ضعيف أمامكِ مهما حاولت». أضاف.

-«أنت قاسٍ يا حسن، حاد وغاضب طوال الوقت.. لا ألومك إنها طبيعة عملك، ولكنني لست من ضمن أعمالك!».

-«لا أتحمل رؤيتك جوار شخص آخر».

ابتسمت بسخرية: «لا تقلق، لن يحدث.. لست مستعدة لإعادة التجربة أبدًا».

-«تجربة صعبة.. معكِ حق.. ولكنني تعلمت شيئاً واحدًا من مهنتي».

نظرت له في عدم فهم فقال: «إن كنت تريد إلَّا يحدث شيء فلتبحث عن احتمالات حدوثه وتخلص منها».

-«ما الذي تقصده؟».

زاد حسن في السرعة، بدأت السيارة ترتفع عن الأرض..

-«حسن.. توقف!».

لم يجبها، زادت سرعة السيارة أكثر فأكثر..

-«حسن!».

تمسكت بكتفه وشدت على قميصه، انحرفت السيارة عن مسارها وسرعان ما انقلبت!

***

(لاشين)

لندن أبرد مما توقع، شد سحاب سترته وغطى أنفه بشال من الصوف، كان خاله بانتظاره عندما هبطت

الطائـرة، وقـف في سـترته الزرقـاء وقبعـة رأسـه الشـتوية السـوداء فـاردًا ذراعيـه تجـاه لاشـين، عانقـه بحـرارة بـددت صقيـع المدينـة وتحركـت أنظـار المارين حـين قـال لـه بالعربيـة: «يـا الله كـم كـبرت يـا فتـى!».

-«ثلاثة وعشرون عامًا ليسا بالكثير».

استقلا سيارة خالـه الزرقـاء وبـدأ يجتـاز الشـوارع الواحـد تلـو الأخـر مبتسـمًا، كان مذيـاع سـيارته النيسـان يذيـع أغنيـة (راديـو جـا جـا) لفرقـة كويـن، نـزع خالـه قبعـة رأسـه ووضعهـا بـين قدمـاه كاشـفًا عـن شـيب رأسـه: «أرى أن المدينة قـد بـدأت تبهـرك».

كان لاشـين يراقـب الشـوارع والماريـن عـبر زجـاج السـيارة، إجابـه دون أن يشـيح برأسـه: «ليسـت كئيبـة كـما قـال لي أسـتاذ براين».

-«من براين؟».

-«راكب التقيت به على الطائرة».

-«بـدأت بتكويـن الصداقـات سريعًـا». ضحـك ثـم أردف: «فقـط تمهـل أنـه يومـك الأول فقـط.. أنـت لم تـرَ شـيئًا بعـد».

-«قالت لي أمي انك تدير مقهى بشارع العرب».

-«إنـه مقهـى صغـير مقارنـة بـما يجاوره، إنه هـادئ سـتقابل الكثـير مـن الأصدقـاء هناك».

-«في الحقيقـة لا أريـد الجلـوس هنـاك طـوال الوقـت أريـد استكشـاف المدينـة.. ثلاثـة أشـهر هـي مـدة بقائـي هنـا لا أريدهـا أن تضيـع بالجلـوس مـع العـرب».

ضحــك: «افعــل مــا تشــاء ولكــن أولًا فلنؤمــن لــك مواصلاتــك، تحتــاج لبطاقــة أوســتر كــي تســتقل الحافــلات والمــترو.. النظــام أهــم الأشــياء هنــا».

-«لقد أصبحت إنكليزي أكثر من اللازم».

ضحــك خالــه وأضــاف: «إن لم توفــر هنــا فلــن تعيــش يومــان». وتابــع قيادتــه للمقهــى..

لم يكــن المــكان مزدحمًــا ولكنــه لم يكــن خاليًــا تمامًــا يمكــن عّــد المتواجديــن عــلى أصابــع اليــد، صــوت أم كلثــوم يصــدح بالأرجــاء، اصطــكاك النــرد بســطح (الطاولــة)، ضحــكات العجائــز.. كان المقهــى مــصري اكثــر مــن الــلازم، قــال لاشــين لخالــه ســاخرًا: «يبــدو أننــي لم أغــادر مــصر بعــد!».

ربــت عــلى كتفــه: «اســترح فقــط مــن رحلتــك، تنــاول وجبتــك، مــن ثــم ابــدأ في رحلــة تفقــدك للمدينــة».

-«أعتقد أنني أحتاج للنوم الآن ولا شيء أخر».

رفـع خالـه ذراعـاه بالهـواء واردف: «كـما تريـد، فقـط انتظـرني نصـف سـاعة، وتنـاول وجبتـك ثـم نغـادر المقهـى».

جلـس لاشـين عـلى إحـدى الطـاولات، المقابلـة للشـارع، تهطـل الأمطـار، تتسـارع خطـوات المـارة، ارتفعـت المظـلات السـوداء بوجـه السـماء، بـدا المشـهد كإحـدى لوحـات الزيـت، انسـيابي عـلى الطريقـة الأوروبيـة..

توقفـت أحدهـم للحظـات تحـت المطـر أمـام ناظـري لاشين، ثـم تأرجحـت خطواتهـا قبـل أن تسـقط أرضًـا، نهـض لاشـين مـن جلسـته واتجـه لهـا، سـاندها عـلى النهـوض ثـم آوى بهـا داخـل المقهـى، أجلسـها عـلى كـرسي وأحـضر خالـه زجاجـة مـن الميـاه: «هـل أنـتِ بخـير يـا فتـاه؟».

فتحـت الفتـاة عيناهـا للحظـات وقـد كانـت حمـراء كالـدم، وشربـت المـاء قبـل أن تضـع رأسـها فـوق الطاولـة وتغـط في نـوم عميـق..

-«إنها منتشيه!». قال خاله.

-«مخـدرات!». قـال لاشـين متعجبًـا، ثـم أضـاف: «لا تبـدو لي كذلـك».

-«يبـدو الأمـر واضحًـا كالشـمس.. ستسـتيقظ بعـد دقائـق ويمكنـك سـؤالها، سـتصرخ في وجهـك ثـم ترحـل».

حك لاشين رأسه، ثم هز كتفها: «هيه! يا فتاة.. هل تسمعين؟».

-«هششش!». قالت الفتاة.

-«استيقظي حالًا، ماذا تتعاطين!».

قال أحد الجالسين في المقهى بعربية مصرية: «يبدو أن قريبك هذا يحب الحشاشين!». وأضاف آخر: «تبدو مألوفة لي!».

رفعت الفتاة رأسها فجأة تجاه الصوت وضيقت عيناها ناظرةً لصاحب الصوت: «ماذا تقول؟ تتحدث بلغة أجنبية في بريطانيا».

ذكر الرجل عضو حميم بجسد أمها، فوقفت على قدماها وأشارت له بإصبعها: «تحدث الإنكليزية، الإنكليزية فقط.. الإنكليزية والا..». تعثرت وكادت تسقط على الأرض، اسندها لاشين والتفت لخاله يسأله بالعربية: «كيف يمكننا إخراجها من تلك الحالة؟».

-«ألقى بها خارجًا.. إنها عنصرية حقيرة!».

-«هو من بدأ بسبها!».

-«هم عنصريين على الدوام.. لا تقلق لقد تلقى هذا الرجل ملايين الشتائم من قبل».

أجلسـها لاشـين عـلى الكـرسي ورش المياه عـلى وجههـا عـدة مـرات.

مـرت دقائـق قبـل أن تفتـح عيناهـا مجـددًا فتلاقـت أعينهـم: «هـل أنـتِ بخـير الآن!». سـألها.

أومأت برأسها عدة مرات، ثم أردفت: «بخير!».

مد يده يصافحها مبتسمًا: «لاشين.. سررت بلقائك».

همـت واقفـة وترجلـت لبـاب المقهـى، ألقـت نظـرة أخـيرة عـلى لاشـين قبـل أن تختفـي عـن ناظريـه..

***

-٣-

(سلوى)

اندمجت سلوى مع الفيلم، تلاحمت مشاعرها مع مشاهده، أحيانًا تحبس أنفاسها وأحيانًا تشهق وتضحك أغلب الأوقات. يتابعها رأفت، يتناسى أحداث الفيلم، ويبتعد عن الحبكة، بات ينظر للشاشة من حين لأخر، تارة يرى (محمود الجندي) يصطاد أرنبًا في الصحراء وتارة يرى (عادل امام) يتوارى في مكان ما وبيده مسدس.

بعد انتهاء الفيلم وقف الاثنان خارج قاعة السينما بانتظار سيارة أجرة، فركت سلوى كفيها طالبة الدفء ضغط رأفت على عويناته: «هل استمتعتِ بالفيلم؟».

-«نعم كثيرًا». تجيبه. ثم أضافت: «ولكنني اشعر بالبرد».

هم بخلع معطفه، فأوقفته: «لا.. لا شكرًا.. دقائق وتصل سيارة أجرة، ليس الأمر بهذا السوء». ضحكت.

ابتسم: «إنه مجرد معطف!».

هـزت رأسـها، ضحكـت مـرة أخـرى ثـم نظـرت لـه مبـاشرًا: «لمـاذا؟».

حدَّق بها دون أن يفهم..

التفتـت للشـارع ثـم أكملـت: «أقصـد.. لمـاذا أنـا تحديـدًا.. الـزواج.. تعـرف أننـي لسـت بتلـك الزوجـة التـي تتمناهـا لنفسـك، لا أبادلـك الشـعور.. تعـرف هـذا مـن اليـوم الأول».

ظل صامتًا.

-«لمـاذا تزوجتنـي.. تعـرف إننـي كنـت مضطـرة لذلـك ولكنـك لم تكـن مضطـرًا». أضافـت بعـد برهـة: «مـن أول يـوم رأيتنـي فيـه لهـذه اللحظـة.. لمـاذا تظـل لطيفًـا معـي؟!».

-«هل هذا يزعجكِ!».

-«كثـيرًا.. أنـت تمسـك بطـرف العلاقـة وحـدك، لطفـك يزعجنـي، افعـل شـيئًا يـبرر بـرودي، يـبرر مـا أفعلـه معـك، أنـا أكـره أفعـالي ولا أتحكـم فيهـا!».

توقفـت سـيارة الأجـرة أمامهـم، عـدل وضـع معطفـه وفتـح لهـا بابهـا، ابتسـم، فيـما مسـحت هـي دمعـة فـرت مـن عينهـا واتخـذت المقعـد الخلفـي.

في الطريق أراحت رأسها فوق كتفه وهمست: «أنا آسفة!».

***

(أحمد)

-«يجب أن تبحث عن عمل». قالت رنا منتصبة الظهر فوق كرسيها، قدمها اليمنى تعتلي اليُسرى، كوب عصير البرتقال ومنديل ورقي به بقايا أحمر الشفاه على جانبها فوق الطاولة، وعلى الجهة المقابلة جلس أحمد منحني الظهر وقد اعتلت ملامحه الإرهاق، أحكم على سيجارته بين أصابعه ونظر مباشرة لها: «لماذا؟».

-«لا يمكنك الاعتماد على الاموال التي تركها لك والدك.. كما أننا سنحتاج شقة للزواج في كل حال، أي أن مصيرها معروف من الآن».

عاد بجسده على الكرسي: «سنتزوج في شقتي الحالية».

-«مع والدتك!».

أومأ برأسه ايجابًا عدة مرات، واعتصر السيجارة بين شفتاه.

-«أحمد.. هل تمزح؟».

-«لا».

فكـت تشـابك قدماهـا وأسـندت ذراعاهـا عـلى الطاولـة: «أحمـد.. لقـد تحدثنـا مـن قبـل.. سـنعيش وحدنـا.. هـا؟.. وحدنـا! تعـرف معنـى الكلمـة صحيـح؟».

أخرج زفيرًا طويلًا وأغمض عيناه للحظات.

-«وسـتبحث عـن عمـل.. لقـد أمضيـت عامـين كامـلان دون عمـل.. لـن نسـتطيع الـزواج بــ..».

قاطعهـا: «هـل تفكريـن في شيء آخـر بخـلاف الـزواج؟». رمـى بسـيجارته عـلى الأرض ودهسـها بطـرف حذائـه.

-«ماذا تقصد؟».

-«لا شيء، ولكن أعتقد أنني اكتفيت..».

-«اكتفيت من ماذا!».

-«سـأعمل عندمـا أرغـب في ذلـك بنفـسي، ليـس لأجـل الـزواج بـل لأجـل نفـسي.. سنسـكن في شـقتي الحاليـة، لـن أفكـر بمنطـق مختلـف حتـى يـأتي مـا يسـتحق.. مفهـوم؟».

-«ما يستحق؟».

-«ما يستحق أن أغير تفكيري».

-«ألا أستحق أن أغير تفكيرك؟».

أشاح بنظره بعيدًا، فمدت أصابعها والتقطت كفه، فلاحظ شعيرات رفيعة فوق أحد أصابعها: «أحمد.. اهدأ.. اهدأ.. ما الذي يحدث لك؟».

سحب يده وأشعل سيجارة جديدة: «أعتقد أنني في حاجة للرحيل».

لم ينتظر منها ردًا، دفع ثمن المشروبات وغادر المقهى.

هاتفته رنا سبع مرات دون رد، ضبط هاتفه على الوضع الصامت وألقى به داخل جيبه وعاد لمنزله، رأى حذاء لسيدة كبيرة أمام الباب، فتحه بهدوء، فنظرت له أمه مبتسمة: «أحمد.. تعال ألقي التحية على أم نور وبنتها.. جيراننا».

صافحها أحمد ورحب بها ثم انتقل إلى غرفته، عندما فتح الباب تحركت عجلات الكرسي ومن فوقه «نور».. تركت رواية موبي ديك والتي كانت تمسكها على المكتب وقالت: «آسفة!». همت بالانصراف من الغرفة فأوقفها أحمد: «كنت تصرخين في وجه العمال بالأمس».

توقفت عجلات الكرسي وقالت: «إنهم أغبياء.. آسفة إن كنت سببت لكم الإزعاج».

-«لا مشكلة.. العمال مزعجين في كل الأحوال».

التقط الكتاب من فوق الطاولة وقال لها: «إن كنتِ تريدين قرأته فلا بأس».

-«قرأت النسخة المترجمة من رواية موبي ديك سابقًا ولم أكملها.. فقط لم أرَ النسخة الأصلية من قبل لهذا فقد كنت أتفحصها».

-«إن كنتِ تريدينها فلا بأس، شرط أن تعيديها لاحقًا».

-«شكرًا». التقطت الكتاب، وحركت عجلات كرسيها تجاه الباب، ولكنها توقفت: «هل يمكنني التدخين هنا؟». أشارت قرب النافذة.

-«كوني على راحتك». ترجل للمطبخ وأحضر منفضة للسجائر، عاد ليجدها تحدق بالسماء عبر النافذة وبيدها سيجارة، اقترب منها ووضع المنفضة بين يديها، أومأت برأسها شاكرة، ولمع قرط أنفها تحت أشعة الشمس المتسللة، وأشعل بدوره سيجارة وشد كرسي وجلس بجوارها.

قالت له: «إنه حادث». نظرت له ثم لكرسيها.

أومأ برأسه: «يمكنني تفهم ذلك».

-«في إحدى الندوات قالت الدكتورة نهى إنني يجب أن أفصح بذلك لكل غريب».

-«من تكون؟».

-«دكتورة تنمية بشرية، كنت أحضر لها ندواتها قبل أن أنقطع نهائيًا».

-«التنمية البشرية اختراع سخيف».

-«أعـرف، لاحظـت أن مكتبتـك خاليـة مـن أي كتـاب تنميـة بشريـة.. كتـب باللغـة الإنكليزيـة فقـط».

-«المصدر دون تحريف المترجمين».

-«ماذا عن الكتب العربية؟».

-«القليل منها».

-«لا أحب القراءة كثيرًا على أي حال».

التقطـت نفسًـا طويـلًا مـن سـيجارتها: «هـل تأسـفت لأننـي زعقـت في وجهـك بالأمـس؟».

ابتسم: «لا.. لم تعتذري».

دوَّى جـرس بـاب الشـقة عاليًـا: «انتظـري لحظـة». ذهـب للبـاب وتحركـت نـور خلفـه، ولكنهـا توقفـت عنـد بـاب غرفتـه، فتـح فوجـد رنـا أمامـه، مسـحت الأخـيرة دموعهـا وقفـزت بـين ذراعـاه وهمسـت: «أنـا آسـفة». لم يتحـرك أحمـد مـن مكانـه، ولم يبـدي أي رد فعـل. وحركـت نـور عجـلات كرسـيه للداخـل مجـددًا.

***

(سعد)

لم تكـن لنـدن جنـة كـما اعتقـد سـعد، كان كل شيء عـلى أشـده، الـبرد، الوضـع المـالي، صعوبـة إيجـاد مبيـت، أمـا العقبـة الأكـبر فكانـت الوقـت.. ثـلاث شـهور كـي يؤمـن نفسـه مـن كابـوس العـودة إلى مـصر خـالي الوفـاض، تذكـر كلـمات خميس - أخيـه الأكـبر: «بريطانيـا ليسـت بالمـكان الـذي يمكنـك فيـه بنـاء مسـتقبل». ولكنـه وكعادتـه تجاهلـه وبحـث عـن فرصـة لزيـارة قصـيرة للبلـد التـي لطالمـا حلـم بهـا، كان الأمـر يحتـاج فقـط لمدخـرات تكفيـه ثـلاث أشـهر جمعهـا أثنـاء عملـه كنـادل بالمقاهـي الشـعبية فـترة الليـل وبالنهـار كان بائع بإحدى أكشـاك السـجائر واقـترض مبلغًـا لا بـأس بـه مـن زوج أختـه الثـري، والـذي كان يمقتـه كالجحيـم، مـن يحـب زوج أختـه ليـس إلَّا مجنـون أو أحمـق. وكلاعـب كـرة قـدم لديـه فقـط تسـعون دقيقة ليحـرز هدفًـا، كان لـدى سـعد فقـط ثـلاث أشـهر.

غرفـة بإحـدى المبـاني القديمـة، العمـل بإحـدى محطـات البنزيـن بأجـر منخفـض لأنـه سـائح في نظـر الشرطـة، والتـي يمكـن بنظـرة عابـرة للباسـبور أن تعيـده مـن حيـث جـاء خـالي الوفـاض مثقـل بالديـون يلعـن حظـه، مـع الوقـت لاحـظ عنصريـة الشـعب الإنكليـزي الصامتـة تجـاه العـرب، كانـوا ينظـرون لـه بكـره حقيقـي عندمـا ينفلـت لسـانه بـ «بسـم الله» عندمـا يضـع لقمـة بفمـه أو «الحمـد لله» عندمـا

يقبل العملات النقدية قبل أن يضعها بجيبه قميصه.

ظن في البداية أنهم يكرهون المسلمين، ولكن اتضح له فيما بعد أنهم يكرهون ناطقي اللغات الأجنبية.

القاعدة الأولى: أنت في بلد يتنفس الإنكليزية، إذن فلتشكر الله بالإنكليزية، فلتحمده بالإنكليزية، فلتفكر بالإنكليزية ولتحلم بالإنكليزية!

قال له أحد المقيمين بلندن إن الفرصة الوحيدة لديه كي يثبت أقدامه بالبلد هي بالزواج، وهو ما كان بعد شهر واحد. وقعت في حبه سيدة عمرها تجاوزت السابعة والأربعين، تُدعى «نيكولا سميث». شعرها يتأرجح بين الأشقر والفضي، عيناها باردتان، قصيرة ومكتنزة الجسد.

القاعدة الثانية: لا تكذب في بلد أجنبي.

قالت له نيكولا أثناء جلوسهم في حديقة الهايد بارك العامة: «أعلم أنك تريد الجنسية.. وأنا أريد الحب.. لا داعي للكذب ولنمشي على القواعد».

-«أي قواعد!».

-«سأمنحك الجنسية.. وفي المقابل عليك أن تكون زوجًا بما تحمل الكلمة من معنى».

ما الذي يملكه سعد غير الموافقة؟ لا شيء!

تزوجها سعد، وفي ليلتهم الأولى لم يتفاجأ كثيرًا عندما أخرجت طوقًا للكلاب وحبلاً بلاستيكيًا وسوطاً قصيرًا، استسلم تمامًا لرغباتها، والتي صارت تشبعه فيما بعد كما تشبعها..

بدأت حياته تتخذ مجرى مختلف، لم يتخلى عن الغرفة الواحدة، بل مع تبدل الظروف اشتراها وتركها بلا ساكن، ومكث مع نيكولا في شقتها ذات الغرفتان، بدأ بالعمل نادلًا بإحدى مقاهي شارع إدجوير، هناك وجد صحبة العرب وكوّن صداقات من جميع البلدان العربية المقيمين بلندن.

مضت السنوات وفتح سعد مقهاه الخاص، أسماه «المصري» وبدأ في مزاولة العمل الوحيد الذي كان يجيده منذ صغره..

***

(لاشين)

في غرفة ضيقة أهداها له خاله سعد ليقيم بها يستيقظ لاشين باكرًا.. يقضى أوقاته الاولى في الصباح داخل مقهى المصري رفقة خاله سعد، يشرب قهوته العربية ويتناول وجبة خفيفة، ثم يجلس لساعة أو اثنتان يراقب تحركات الشارع ويتحدث معه عن مصر، يفني ما تبقى من يومه

في التجـوال بـين شـوارع لنـدن وزيـارة ميادينهـا، أحـب كثـيرًا زيـارة قـصر باكنغهـام، وقـضى وقتًـا طويـلًا في المـشي بشـارع أكسـفورد وداخـل هايـد بـارك حتـى آلمتـه قدمـاه.

بالمسـاء لم يكـن هنـاك الكثـير ليفعلـه، أم كلثـوم وأكـواب الشـاي هـي الوجبـة المفضلـة لـرواد المقهـى، يخبـأ خالـه شيشـة وبعـض أحجـار المعسـل في مـكان مـا لتكـون رفيقتـه ليـلًا بعيـدًا عـن أنظـار الشرطـة..

في تلك الليلة كانت أم كلثوم تصدح بأرجاء المقهى..

يا أغلى من أيامي

يا أحلى من أحلامي

كان خالـه يعتـصر خرطـوم الشيشـة بركـن متـواري عـن الأنظـار، لمـح لاشـين وجهًـا مألوفًـا يعـبر مـن أمـام المقهـى، اسـتغرق ثـوان حتـى تبايـن لـه أنهـا الفتـاة ذاتهـا التـي فقـدت وعيهـا منـذ أيـام أمـام المقهـى، ابتلـع ريقـه وخطـى تجـاه بـاب المقهـى ووقـف ينظـر لهـا، توقفـت الفتـاة عـن السـير والتفتـت تجاهـه وتقدمـت بهـدوء، وقفـت أمامـه مبـاشرةً وقالـت: «أنـا أعتـذر عـن الإزعـاج الـذي سـببته منـذ أيـام».

حـك رأسـه ثـم أردف: «لا مشـكلة، لم يحـدث شيء.. المهـم أنـك بخـير».

رفعــت رأســها للافتــة المقهــى: «أنــت مــن الــشرق الأوســط؟».

-«نعم.. مصري!».

أومأت برأسها عدة مرات: «أعتذر مرة أخرى».

-«لا عليكِ..». مد يده تجاهها: «أنا لاشين».

التقطت كفه بهدوء وحذر: «كارين».

-«كاريــن.. يمكنني دعوتــك لــشرب الشــاي إن كان لديــكِ وقت».

أم كلثــوم، تشــدو بإرجــاء المقهــى: خُــدني لحنانــك خُــدني!.. مــن الوجــود وابعــدني.. بعيــد بعيــد!

حدَّقــت بــه للحظــات، ثــم أومــأت وجلســا حــول إحــدى طــاولات المقهــى.

ســعل لاشــين مرتــين ثــم ســألها باســمًا: «هــل جربتــي القهــوة العربيــة من قبــل؟».

هــزت رأســها نفيًــا ثــم أردفــت: «اعــرف انهــا تُــشرب بهــدوء وفي فنجــان صغــير، ولكننــي لم أجربهــا يومًــا».

-«إذن فلتكن تجربتكِ الأولى».

-«مـن تلـك؟ التـي تغنـي». أشـارت للتلفـاز الـذي كان يعـرض إحـدى حفلاتهـا.

-«أم كلثوم.. أفضل مطربة عربية».

أخرجـت سـيجارة مـن حقيبتهـا وقالـت: «لا أقصـد الإهانة ولكنهـا مزعجة!».

شربـا القهـوة، وبـدأ يتحدثـان عـن عـدة أشـياء، تبـين للاشـين أنهـا ذكيـة ومثقفـة، لم تعجبهـا القهـوة العربيـة، قـال لها لاشـين بعـض ضحكـة صافيـة: «إن الفروقـات بيننـا كثـيرة!».

ابتسمت: «هل تجولت بلندن؟».

-«لا..».

-«يمكننـا التجـول معـًا غـدًا.. أعتقـد أنـه إعتـذار مناسـب عـما بـدر منـي منـذ أيـام».

***

(كارين)

لم تعـد الافـكار تتدفـق بعقـل كاريـن، لم تعـد المدونـة الخاصة بهـا تعمـل، بـات الوصـول لفكـرة مـا أمـر مسـتحيل، جـف البئـر! لا ميـاه تتدفـق! تجلس أمـام شاشـة الحاسـوب لسـاعات دون الوصـول لـشيء، تعـود لتقـرأ بعـض الفقـرات مـن الأدب الكلاسـيكي، شكسـبير.. تتقـدم بالزمـن، آرثـر كونـان دويـل..

تعود للحاضر خالية الوفاض، الموسيقى قد تكون الحل للبعض ولكنه حل لا يناسبها، الموسيقى، «فقدان التركيز» هو تشخيص حالتها كما قالت صديقتها جينيفر.

جينيفر كسول، سمراء، ذات قامة طويلة، جسد نحيل، شعر على طريقة الرستا وحساب على انستجرام يضم الالاف، تؤمن أن البشر يبذلون المجهود في مقابل المال والجنس فقط، لذا فقد وجدت بكارين التناقض المثالي لها، وهو السبب في صداقتهما.

تناولت كارين سيجارة وأشعلتها، اسندت رأسها على كفها وقالت: «هل لديك فكرة للكتابة عنها؟».

أجابتها جينيفر اثناء تصفحها هاتفها: «تحدثي عن هؤلاء الأغبياء الذين يرسلون صورة لعضوهم في أول محادثة».

-«أتحدث بجدية!».

-«كارين.. لديَّ شيء ما أود أن أخبركِ به».

تعرف كارين مشكلات جينفر، والتي تخجل أن تسميها مشكلات..

-«جينفر، أريد حلًا أولًا!».

تنهدت جينفر وتركت هاتفها على الطاولة: «حسنًا، ما الذي يشغل عقلك هذه الأيام؟».

-«لا أستطيع الوصول لشيء ما، إنها أشياء مبهمة».

-«ماذا عن ما يريده قُرَّاء المدونة؟».

-«ليسوا بالكثيرين على كل حال».

-«استخدمي تطبيقات مختلفة، لا أحد يقرأ القصص على واتباد.. باستثناء القصص الجنسية السخيفة».

-«هذا محبط!».

شردت جينيفر للحظات، ثم قالت لها: «لديَّ شيء أريد التحدث بشأنه».

-«ربما في وقت لاحق يا جينيفر، سأذهب للمكتبة.. ربما أغيب لعدة أيام، يجب إلَّا تموت المدونة».

ضمتها كارين ثم رحلت: «أراكِ في وقت لاحق!».

عادت جينيفر تحدق بهاتفها..

أغلقت كارين هاتفها في الأيام اللاحقة، قرأت العديد من القصص والمقالات، لم تكن تغادر منزلها إلَّا للمكتبة، لم تثمر أيامها بشيء ما، لقد وصلت للحد الذي ينتهي الكاتب العابر، انتهى الأمر، فإما أن يولد المرء كاتبًا أو لا يولد، تجاربها السابقة لم تكن إلَّا تفريغ شحنة، وقد فرغت بالكامل كحاوية أفرغت بضائعها بالميناء.. لا داعي للمحاولة إذن..

جلست على سريرها، أشعلت سيجارة وحدَّقت بسقف الغرفة، أنهت سيجارتها سريعًا ودهستها بالمنفضة، التقطت هاتفها وفتحته. وتوقف عقلها عن العمل وتجمّد الدم بعروقها عندما علمت أن جينفر قد انتحرت عن طريق ابتلاع عشرين قرصًا منومًا دفعة واحدة مُنذ أيام!

***

-٤-

(سلوى)

-«ما رأيكِ بإكمال الدراسة بدلًا من العمل؟». سألها رأفت أثناء تناول الفطور، كان ذهنه شاردًا وقد بدى على وجهه الإرهاق، أما فقرات ظهره فقد كانت تشكو من النوم فوق الأريكة لليلة السابعة على التوالي، أضاف: «يمكنكِ اللحاق بالجامعة».

بكلتا يداها أحكمت قبضتها على كوب الشاي وعيناها صوب الحائط الذي تزين بصورة زفافهم داخل إطار ذهبي، قالت: «لن تبدأ الدراسة الآن، مازال أمامنا بعض الشهور فلا مشكلة أن عملت فيهم ثم التحقت بالجامعة».

أومأ برأسه، ثم أكمل تناول وجبته، وعندما فرغ منها ارتدى ملابسه على عجل وهمَّ بمغادرة المنزل، لم تتحرك سلوى من مكانها، أوقفته بكلماتها: «ستزورنا أمي اليوم..

أرجو منك إلَّا تذكر أمامها شيء.. أعلم أنني أثقل عليك». قالت كلماتها الأخيرة بشيء من الخجل.

-«لا تقلقي». غادر رأفت، وكان التلفاز في العاشرة صباحًا يذيع القرآن الكريم، أعدت كوبًا إضافيًا من الشاي وأغلقته عندما انتهت التلاوة وبدأ عرض برنامج سينما الأطفال، تفكر إلى أين سيقودها برودها وجفافها تجاه رأفت، أمسكت بكتاب فيرجينيا وولف وبدأت تقرأ المقدمة والتي كانت تستعرض نبذة عن حياة الكاتبة، ولدت فيرجينيا وولف في الخامس والعشرين من يناير، لوالد مؤرِّخ وكاتب ومتسلقًا للجبال، أما والدتها فقد ولدت في الهند وعملت كممرضة وكتبت العدد من الكتب عن مهنة التمريض.. سلوى! ولدت لأب جاهل سكير عَفن وأم مستسلمة لنزواته واهاناته اليومية، وفي النهاية ملأت فيرجينيا معطفها بالحجارة ورمت بنفسها في النهر عن عمر يناهز التاسعة والخمسين.. أغلقت سلوى ضفتا الكتاب وسألت نفسها، كيف ستكون نهايتي!؟

عندما زارتها أمها، كان كل شيء مُعد بدقة، رأفت يجيد آداء دور الزوج الرائع على أكمل وجه، تمثيل بارع من الزوجين استطاعا رسم الابتسامة على شفاه العجوز، وفي المساء وبعد مغادرتها عاد الوضع كما كان، وبدأت فقرات ظهر رأفت تشكو من ليلة أخرى فوق الأريكة قبل أن

يخبرهـا وعينـاه صـوب عيناهـا: «لقـد اكتفيـت.. إنهـا ليلتـي الأخـيرة بهـذه اللعبـة».

***

(أحمد)

في الشرفـة كانـت سـيجارته في أخـر مراحـل الاحـتراق، لُسع أصبعـه قبـل أن يـدرك أنهـا انتهـت، قذفهـا والتفـت ليجد نـور بالشرفـة الموازيـة لـه تـدس سـيجارة بـين شـفتاها، نظـرت لـه الأخـيرة، نظـر أحمـد بـدوره لسـاعة هاتفـه التـي أشـارت للرابعـة فجـرًا ثـم أردف: «لم تنامـي بعـد؟».

-«ماذا ترى؟».

-«إن كان هناك ما يشغلكِ يمكنكِ حكيه».

أشعلت سيجارتها وقالت له: «ليس من شأنك..».

تنهد: «أنا لا أنام الآن عادةً».

رنَّ هاتفه برقم رنا، فضغط على الزر الأحمر ودسه بجيبه.

-«أهي خطيبتك؟ يمكنك تلقي المكالمة لا مشكلة».

-«في الحقيقة لا أريد ذلك».

-«هممـم». التقطـت بعـض الأنفـاس مـن سـيجارتها فأردف أحمـد: «أعـاني مـن بعـض المشـاكل معها.. هـي فقط لـ..».

قاطعته: «لا أهتم».

توقف أحمد عن الكلام، هزَّ رأسه ثم تنهد: «ما هي مشكلتكِ؟».

-«مشكلتي؟!».

-«تنفرين من الأحاديث وتتكلمين بجفاء!».

-«ربما أنت ثرثار أكثر من اللازم».

نظر لها مباشرةً: «اعتذري عما قلته..».

-«لن يحدث.. اذهب لتشكو لأمك».

ابتسم في غضب ورفع سبابته تجاهها: «تعرفين.. الحق عليّ من البداية». رفعت أصبعها الأوسط في وجهه، فاغلق باب الشرفة خلفه وذهب لسريره، ولكنه لم يستطع النوم قبل أن يُدخن سيجارة إضافية تطفأ غضبه..

أيقظته الضوضاء بالتاسعة، صوت لسيارة الإسعاف والمطافئ، الإيقاع يتزايد، الصراخ لا يتوقف، الدخان يتصاعد من البناية، «ما الذي يحدث؟» سأل والدته فقالت له أن حريقًا شب في منزل جيرانهم الجدد..

***

(كارين)

جينفر داخل إطار صورة فوتوغرافية، مبتسمة وصافية الوجه، لسبب ما أخّر الصور التي تُلقط للمكتئبين تلقط وهم يبتسمون، الشموع تحيط بالإطار، الأزهار ملقاه بكل الأركان، الكثير من القصاصات الورقية الملونة التي كُتبت عليها ملاحظات الوداع، الملابس الرسمية ومنصة الوداع، تجلس أمها بالصف الأمامي للحشد، خمرية اللون ذات ملامح خشنة كالرجال، وقلب هشّ كالأطفال.

صعدت على المنصة أمام صورة كبيرة للسيد المسيح فاردًا ذراعاه، تنهدت ثم نظرت لصورة ابنتها، أخرجت ورقة مطوية من جيب سترتها وبدأت تقرأ منها: «لم تكن جينفر ابنتي تشبهني، تشابهت مع والدها في اللون والملامح والصفات والرحيل مبكرًا.. كنت أظن أنني أعرفها، ككل الأمهات، نعتقد أننا نعرف الكثير ولكننا لا نعرف أبدًا، كنت أقول لنفسي إنها ذكية وجميلة ستجد ما تبحث عنه يومًا ما، ليتني كنت أعرف الحقيقة.. كانت جينفر تعاني من الاكتئاب وتخفي ذلك عنا، كانت الموسيقى لا تنقطع من غرفتها فأظن أنها سعيدة بحياتها، تتناول فطورها كل يوم وهي تبتسم، تلتقط الصور كل ساعة، عدى هذه الصورة». أشارت للصورة الموضوعة داخل الإطار: «لقد التقطت لها هذه الصورة بنفسي.. لن أنساكِ يا جينيفر،

وأعلـم أن روحـكِ سـتطارد السـبب فيـما حـدث لـكِ.. أعلـم أنـكِ لـن ترتاحـي في الحيـاة الأخـرى إلَّا بعدمـا ينتقـم لـكِ القـدر».

حدَّقـت بصـورة ابنتهـا للحظـات وهربـت دمعـة مـن عينهـا: «جينفـر، لـن ننسـاكِ، وبـما أنـك منـي سـأعيش دائـماً بضلـع ناقـص.. سـأصلي لـكِ دائـماً».

طـوت كاريـن الورقـة التـي أعـدت للجنـازة ودسـتها بجيبهـا، غـادرت الكنيسـة، ولم تشـعر بالمسـافة المقطوعـة إلَّا حـين وجـدت نفسـها أمـام هايـد بـارك، جلسـت بإحـدى المقاعـد، أشـعلت سـيجارة، والتقطـت أنفهـا عطـر جينيفـر، ترجلـت بعدهـا لإحـدى الحانـات القريبـة، جلسـت عـلى طاولـة وحيـدة، وتجرعـت الكـؤوس تباعًـا، تدخـن بشراهـة، وعندمـا بـدأت الموسـيقى في العـزف رقصـت كالمجانـين، شـعرت بـأن أحدهـم يحـاوط جسـدها مـن الخلـف ببـطء وهـدوء ثـم بـدأ يتحسـس خصرهـا بأصابعـه، خـارت قدماهـا، أسـندها، وقادهـا للطاولـة: «قسـط مـن الراحـة؟».

أومأت برأسها وأسندت ذقنها فوق كفها.

-«كأس أخير؟». قال لها.

أومـأت مجـددًا، نظـرت للسـاقي، ولاحظـت أن شـعره مصفـف بطريقـة الرسـتا!

طلب الفتى كأسين، ثم التفت لها: «هل تحبين قضاء الليلة في فندق قريب؟».

ابتسمت بعين نصف مغلقة ورفعت أصبعين بالهواء: «شرطان!».

أنزلت أصبع منهم وقالت: «واقٍ».

ابتسم.

أخرجت من جيبها ورقة الرثاء وقالت له وهي تنزل أصبعها الثاني: «وأن تأكل تلك الورقة.. الآن!».

-«ماذا؟ هذا جنوني!».

-«اذن فلا داعي لهذا».

التقط من يدها الورقة ومزقها لقطع صغيرة وبدأ يبتلع الأجزاء واحدة تلو الأخرى، تجرع كأسًا كبيرة بعدها بينما هي تضحك.

لم تود كارين أن تنام بالفندق، ارتدت ملابسها على عجل وفتحت باب الغرفة، لمحت وجه جينيفر يبتسم بنهاية الرِّواق، استوقفها الرجل وأعطاها مظلة سوداء: «إنها تمطر بالخارج».

التقطت منه المظلة وحافظت على ثبات خطواتها حتى خذلتها قدماها أمام مقهى العربي.

(لاشين)

-«في الحقيقة لست من مدمني القراءة، معدلي لا يتجاوز الأربع كتب بالعام».

-«إنه معدلي خلال اسبوع».

توقفت كارين ثم قالت له: «حسنًا ما الذي تود زيارته بلندن؟».

حك لاشين رأسه: «لا أعرف الكثير عن لندن.. أينما تريدين الذهاب فأنا معكِ».

-«السير بدون وجهة محددة؟».

-«يبدو لي هذا مناسبًا..».

تجولا لساعتان يتحدثان عن الكثير من الأشياء، لم تذكر كارين شيئًا عن جينفر، لم تكن سعيدة فقط كانت تتصنع سطوتها لربما تأتي!، قادتهم أقدامهم لإحدى القصور القديمة، توقف لاشين يحدِّق بأحدهم، ثم صاح: «مستر براين!».

قالت له كارين: «صديق قديم؟».

-«قابلته بالطائرة، هاك.. الذي يمسك بالكاميرا». أشار تجاهه.

لوَّح له، فابتسم الأخير.

-«المصري الذي يحب النظر للمؤخرات!».

ضحكت كارين.

-«أستاذ براين ليست تلك بالمقابلة المثالية!».

ضحك الرجل وقال له: «تبدو لي بصحة جيدة.. كيف هي لندن بعد أسبوع من إقامتك؟».

-«إنها مدينة رائعة».

نظر لكارين، فقدَّمها له لاشين: «إنها كارين.. صديقة جديدة».

-«مرحبًا كارين.. هل يمكنني التقاط صورة لكِ؟».

نظر له لاشين ثم نظر لها.

قالت كارين مبتسمة: «لا مشكلة!».

بدأت الكاميرا تلتقط لكارين الكثير من الصور، وسرعان ما انضم لاشين لها..

-«سأطبع الصور خلال أيام، يمكنك أخذها وقتها.. إنها ذكرى جميلة.. هاك الكارت الخاص بي نتقابل بعد أيام اتفقنا؟».

-«اتفقنا».

***

-٥-

(سلوى)

لم يكـن رأفـت بالمنـزل عندمـا اسـتيقظت سـلوى، وعندمـا عـاد عـصرًا كانـت قـد حـضرت الطعـام وضبطـت مسـاحيق التجميـل فـوق وجهـه، جلسـا متقابلـين عـلى الطاولة، ابتسـمت وقالـت لـه: «أنـا آسـفة عـما بـدر مني.. لقـد فكـرت كثـيرًا.. أنـت لا تسـتحق كل هـذا.. أنـا آسـفة!».

ابتسم رأفت وقال لها: «صفحة جديدة؟».

-«بيضاء.. خالية من كل ما أزعجك مني».

شرب كـوب المـاء أمامـه وأردف: «لم تسـأليني أيـن كنـت صباحًـا».

-«اين كنت؟».

-«لقد وجدت لكِ عملًا مناسبًا، كي يملأ وقت فراغكِ.. كما طلبتي مني».

-«حتى بدء الدراسة؟».

-«العمل في مكتبة.. سيساعدك كثيرًا حتى بداية الدراسة».

ابتسمت: «لا أعرف كيف أشكرك!».

-«أريد طفلًا».

لم ترد.

-«إنها الطريقة الوحيدة كي تشكريني».

ابتسمت، وفي خجل أومأت برأسها..

***

(أحمد)

-«ماس كهربي، هكذا يقولون». قالت والدة نور وعلى وجهها ما تزال ملامح الفجيعة.

-«الحمد لله على كل شيء، المهم أنكم بخير!». قالت والدة أحمد وكفها يربت على كتف السيدة بجوارها.

كانوا يجلسون بغرفة المعيشة بعدما انتهى رجال المطافئ من إخماد النيران وإعادة السكون للمنزل، بحث أحمد

عـن نـور ليجدهـا في الشرفـة تدخـن بشراهـة، وقـف بجـوار كرسـيها وأسـند معصميـه عـلى السـور، أشـعل سـيجارة وقـال لهـا: «أرجـو أن تكـوني بخـير».

لم تـرد، وسـاد الصمـت بينهـما لدقائـق، قاطعـه أحمـد: «أعـرف مقـدار مـا بـكِ، لقـد مـررت بـما هـو مشـابه، الفقـدان والتيـه الـذي يسـكنكِ يسـكنني أيضًـا.. يمكننـي تفهـم مـا بـكِ».

ظلـت نـور ترمقـه فيـما التقـط بعـض الأنفـاس من سـيجارته وأكمـل وعينـاه صـوب الشـارع: «ماتـت الفتـاة الأقـرب لقلبـي أمـام عينـي ولم اسـتطع فعـل شيء، تجمدت مـكاني.. لا نسـتطيع في هـذه الأوقـات فعـل شيء، يكـون للعجـز الكلمـة الأعـلى دائـمًا، مـا زلـت أذكـر تلـك الليلـة جيـدًا، ولكننـي لم أعد أشـعر بالذنـب المصاحـب لهـا، أنـا أعـاني مـن اللامبـالاة.. أحلـم بهـا كثـيرًا، لا شيء يمكـن أن يجعلنـي أتفـادى مواجهتهـا كل لحظـة ولكنهـا ذكـرى بـلا مشـاعر!.. إننـي..».

أمسـكت يـده، فتوقـف عـن الحديـث، نظـر لهـا، ثـوان مرت بـلا كلام، أردفـت: «لقـد شـعرت بالعجـز لحظـة واحـدة.. أمـا أنـا فأشـعر بـه كل ثانيـة». أفلتـت يـده ثـم أضافـت: «لا تخبرني أن الحيـاة اسـتمرت بعـد ذلـك أبـدًا، لا يقـف المتعثـر عـلى قدمـاه إلَّا وتملأه النـدوب».

حولت اتجاه الكرسي عكسه، وتحركت مغادرة الشرفة..

-«أنا لا أشعر أنني بخير يا نور!».

توقفت بكرسيها لثانيتين أخرجت زفيرًا طويلًا قبل أن تتابع تحركها..

***

(خالد)

يُدرك أنه لو استمر بالعمل حتى الزج بالقبر فإن ذلك بلا فائدة، الزواج بسن الرابعة والعشرين قادر على تحويل الشباب إلى كهول، في السادسة صباحًا يستيقظ ليزاول عمله الأول في إحدى المقاهي حتى السادسة مساءً، لينتقل بعدها للعمل كفتى توصيل على دراجته الآلية بإحدى الصيدليات حتى الثانية صباحًا، يقضي نصف ساعة على المقهى بجوار الشيشة وأحجار الدومينو، ثم يعود لمنزله لينام بجوار زوجته ساعتان استعدادًا للغد، هل يكفي ما يجنيه؟ الإجابة دائمًا لأ!

كانت سُمية زوجته من النوعية التي اعتادت حياة الترف منذ نعومة أظافرها، تعرف أسماء الماركات العالمية ومن أين يمكن شرائها وكيفية التنسيق بينهم، لا يفارق أحمر الشفاه وجهها حتى في أسوء الحالات، لا تكف عن الابتسام وإطلاق النكات والضحك في كل الأوقات.

كانت على السرير عندما عاد خالد ونام ظهره له، لامست كتفه بأطراف أصابعها وهمست بأذنه: «وحشتك؟».

ربت على كفها وأردف: «كثيرًا».

أسندت ذقنها على كتفه وقبلت أذنه، تكور جسد خالد بوضع الجنين وهربت الدموع من عينه، احتضنته سُمية وقالت بفزع: «ماذا بك.. ما الذي حدث!».

قال من بين دموعه: «تعبت!».

لم تضف شيئاً، ظلت تحتضنه حتى نام..

***

(لاشين)

لقاءاته مع كارين تكررت، أسبوعان كاملان لا يفترقان من الصباح للمساء، في زيارتهم لإحدى المكتبات، أهداها رواية «يوتوبيا»، وهي رواية للكاتب المصري أحمد خالد توفيق تُرجمت من العربية للإنجليزية، وقد أهدته بالمقابل رواية «الغريب» لألبير كامو واحتضن الكتابان. الصور التي التقطها استاذ براين لهما..

-«نصنع الذكريات معًا». قالت كارين.

-«سأحتفظ بالرواية دائمًا، لن تخرج من مكتبتي عندما أعود لمصر».

نظرت لساعة يدها، كانت تشير للتاسعة مساءً: «أين تحب أن نقضي ليلتنا؟».

-«فلنعد لمقهى العربي، يمكننا قضاء ليلة لطيفة هناك».

-«بدون أم كلثوم؟».

-«سنصم أذاننا عنها».

وقفا على رصيف المترو الخالي من الركاب بانتظار قدومه، أحد الشحاذين يجلس في ركن ما يعزف أغنية **(Anyone Who Knows What Love Is)** لإيرما توماس على الاكورديون وبجواره فتاة تغني الأغنية ذاتها. وقف لاشين أمام كارين مباشرًا وبهدوء قبلها وابتعد عنها خطوة وابتسم في خجل، قال بالعربية: «آسف.. أنا.. أنا أحبك!».

ابتسمت كارين قبل أن ترفع وجهها تجاهه: «أفهم ما تقوله الآن بغض النظر عن اللغة». اقتربا من بعضهما البعض وارتجفت شفاههم، قبل أن يقاطعهما المترو الذي كان قد حضر بسرعته القصوى، ابتسم كلاهما وركبا متشابكي الأيدي..

***

(نور)

كانـت تحـضر العشـاء عندمـا جرحـت أصبعهـا، شـدت عـلى عجـلات كرسـيها وتحركـت تبحـث عـن مِنديـل تمنع بـه النزيـف، توقفـت عنـد غرفـة والدتهـا لتجدهـا جالسـة تبكـي أمـام صنـدوق قديـم، اقتربـت منهـا لتلمـح في يدهـا علبـة لشريـط فيديـو قديـم وصـورة لوالدهـا..

-«ماما.. أهو شريط فرحكِ؟».

أخفـت السـيدة مـا بيدهـا داخـل الصنـدوق ومسـحت دموعهـا بسرعـة قبـل أن تبتسـم في وجـه نـور، قالـت الأخـيرة: «آسفة عـلى مـا حـدث صباحًـا.. لا أعـرف كيـف حـدث شيء كهـذا».

هـزت السـيدة رأسـها وفتحـت ذراعاهـا لتحتضنهـا، قالـت نـور وهـي في حضـن أمهـا: «مـا زلـتِ تتذكريـن والـدي!».

-«لم يعـترض عـلى تسـميتي لـكِ نـور.. كان يـردد لي دائـمًا أنـكِ مـن أضـأتِ حياتـه».

-«أنا متعبة يا أمي».

شدت أمها على ابنتها وبدأت بالبكاء..

عندمـا خرجـت نـور مـن غرفـة أمهـا كان الجـرح قـد توقف عـن النزيـف وبـدأت جـروح أخرى تنـزف رغـمًا عنهـا، جروح

لا يمكـــن إدراكهـــا إلَّا بالقلـــب، تناســـت العشـــاء وجلســـت بالشرفـة، أشـعلت سـيجارة ونظـرت بالشرفـة المجـاورة لتجـد أحمـد واقفًـا كعادتـه.. تنهـدت بحرقـة ثـم أردفـت: «أنـا أيضًـا لا أشـعر أنني بخـير يـا أحمـد!».

واستمرت بالبكاء جواره حتى هدأت تمامًا..!

***

-٦-

(سلوى)

يبـدأ دوام عملهـا بالمكتبـة في التاسـعة صباحًـا، أسـبوع كامـل مـن العمـل المنتظـم، لم تسـجل حالـة تأخـر ولـو لدقيقـة واحـدة، متحمسـة كثـيرًا ومقبلـة عـلى العمـل، يُثنـى عليهـا صاحـب المكتبـة منـذ السـاعات الأولى لعملهـا، كانـت تبـدأ يومها بترتيـب الرفـوف حسـب الحـروف الأبجديـة، ثـم تنظيم رفـوف الكتـب الأكثـر مبيعًـا، ومـن ثـم الأعـمال المترجمـة والنـادرة، وتنتهـي بالأعـمال المخصصـة للإعـارة ثـم تبـدأ بكنـس الأرضيـة وعندمـا تفـرغ تلتقـط كتابًـا وتقـرأه، تتركـه بطبيعـة الحـال عندمـا يـأتي أحـد الزبائـن.

كان الجـو هادئًـا ورائقًـا لقـراءة عمـل جديـد، التقطـت مـن رف الأعـلى مبيعًـا روايـة (قشـتمر) لنجيـب محفـوظ والتـي ظلـت بقائمـة الأعـلى مبيعًـا حتـى بعـد عامـين مـن صدورهـا، قلبـت بـين صفحاتهـا أولًا ثـم بـاشرت القـراءة..

-«مرحبًا.. أهلًا!.. يا آنسة!».

رفعت سلوى رأسها عن الكتاب لتجد فتى متوسط الطول يبدو عليه الهدوء، ذقنه غير سوية ووجه عابس، يرتدي معطفاً أخضر، ويلتفت حوله كل ثانية، وينصب عرقه على جبينه، أغلقت ضفتي الكتاب وقالت: «تحت أمرك!».

تردد قليلًا ثم قال: «أريد كتابًا عن القوانين الدولية».

أشارت لرف كتب القانون وقالت له: «هاك.. اختار منه ما تشاء!».

تحرك الفتى ناحية الرف وتابعته سلوى بشيء من الفضول، نزع الفتى معطفه وأمسكه بيده، وبدأ ينظر للكتب بالرف، اقتحم المكتبة رجل شرطة، وضع يده على المكتب وفي تقزز سأل سلوى: «هل دخل هنا فتى ذو معطف أخضر ونظارات؟».

نظرت سلوى نظرة خاطفة للفتى الواقف بظهره يقلب بين الكتب، ثم نظرت لوجه الشرطي وقالت: «لا يا سيدي، لم أرَ شخصًا كهذا».

-«ابن الكلب!».

-«هل هناك مشكلة ما؟».

-«ليس من شأنكِ». قالها وغادر المكتبة على الفور، تنهد الفتى وأمسك بصدره، وبعد ثانية قال لسلوى: «شكرًا لكِ».

-«غادر المكتبة على الفور.. لا أريد مشاكل هنا!».

-«خمس دقائق فقط حتى يبتعد وسأغادر».

-«الآن أقول لك غادر الآن.. هذه ليست مكتبتي ولست في حاجة إلى مشكلة».

نظر الفتى للشارع من خلف باب المكتبة وقال لها: «شكرًا لك مرة أخرى». ثم غادر بهدوء ومعطفه في يده.

في الرابعة عصرًا كانت سلوى واقفة على محطة الترام بانتظاره لتعود لمنزلها، يعود رأفت من عمله في الرابعة لذا كان طعام الغداء مسئولية من يصل أولًا، كان رأفت يملك ذوقًا خاصًا في إعداد الوجبات الخفيفة كالمعجبات والأطعمة المقلية، ولكنه كان يقف عاجزًا أمام اللوغاريتمات الخاصة بالطواجن والمحاشي وما إلى ذلك. أعد طبقين من المعكرونة والبطاطس المقلية وشرائح اللحم وجلس بانتظار سلوى التي فتحت باب المنزل بينما كان يعد السفرة، نظرت للسفرة المدشنة بالأطباق وقالت: «رأفت.. هذا رائع.. شكرًا لك!».

مسح يده في فوطة معلقة على كتفه وقال: «كيف سار عملكِ؟».

-«حدث أمر غريب قليلًا.. ولكنه ليس بالمشكلة».

-«ما الذي حدث؟».

حكت له سلوى كل شيء، ابتسم رأفت وقال لها: «إنه من طلاب الجامعة الذين يصيحون هذه الأيام بحرية فلسطين وكلام كهذا، يثيرون الشغب كل فترة ثم يهدؤون، ما فعلته كان صحيحًا.. كان مستقبل الولد سيضيع!».

ناما حتى المساء بعد تناول الغداء، وقضا ليلتهما عندما استيقظا أمام التلفاز الذي كان يعرض فيلمًا قديمًا لإسماعيل يا سين.

***

(أحمد)

-«الآن.. لكي نجد الحل علينا أن ننظر بعناية للمشكلة». قالت نور وهواء البحر يداعب شعرها.

-«المشكلة هي أنني تعبت».

-«السير هو أفضل طريقة للتفكير».

-«السير.. وليس دفع كرسي به فتاة تزن ثمانين كيلو جرام في السابعة صباحًا بدون لقمة واحدة بالمعدة».

-«ثمانين!».

التفتت له نور وأزاحت أصابعه عن الكرسي، فرفع يداه بالهواء، وبدأت تدفع عجلات الكرسي بنفسها، مشي أحمد بجوارها وأشعل سيجارة بينما يده اليُسرى في جيبه: «حسنًا، أنا رجل ليس لديَّ مشكلة في المال، لدي خطيبة اشمئز منها، وأم لا أريد تركها وحدها».

-«وماذا أيضًا؟».

-«لا أشعر أن لديَّ شغف لفعل أي شيء».

-«لنبدأ بأول مشكلة.. خطيبتك.. رنا صحيح؟».

يومأ أحمد برأسه.

-«ما هي مشكلتك معها؟».

-«إنها سخيفة أكثر مما ينبغي».

-«هل كانت كذلك من البداية؟».

-«ما كنت لأخطبها لو كانت كذلك».

-«أرى أنك أخطأت الاختيار، ولكن وضحين، الاشمئزاز ليس بالسبب المقنع لتركها».

-«قال خالد ذلك أيضًا».

-«صديقك؟».

-«نعم.. ما علينا، ما هو الحل؟».

توقفت نور عن دفع العجلات، فتوقف أحمد بدوره، وقالت: «قد لا يكون سببًا مقنعًا، ولكنك يمكنك البحث عن سبب آخر، شيء ملموس ويمكنك تركها لأجله بدون ذنب على الأقل.. ابحث عن خطأ ما».

ضحك، وقال: «إنها لا تخطأ».

-«أرى أنك المخطئ في هذه الحال». تابعت دفع عجلات كرسيها، سار بجوارها كما كانا، سألها: «ماذا عنكِ؟».

-«لا أعرف.. ربما عندما تجلس على كرسي كهذا ستفهم».

مرا بجوار محل لبيع الأزهار، نظرت للأزهار في قرف ثم قالت: «أكره النباتات.. الأزهار بالأخص».

-«حكاية قديمة تمت لها بصلة؟».

-«لا.. فقط لا أحب توظيف كائن حي لتزيين بيت كائن آخر».

-«معقدة!».

-«أخبرتني أمي بالأمس أن هناك من يريد الزواج مني».

-«من تعيس الحظ؟».

-«ابـن صديقـة لهـا.. كان صديـق طفولتـي، لا أذكـر الكثـير عنـه سـوى أن اسـمه رامـي».

-«ربما هو نافذتكِ لبداية جديدة..».

-«أظن أنه يجب علينا العودة.. بدأت اشعر بالجوع».

-«فليكن!».

وقــف خلفهــا وبــدأ يدفـع كرسـيها فابتســمت وقالــت: «أرجــو إلَّا تشــكو بنهايــة الطريــق».

-«لا داعي للقلق.. إنهم ثمانين كيلو فقط!».

***

(لاشين)

-«لقد احببت ما كتبته حقًا».

-«حقًا».

-«نعم كثيرًا، لِمَ توقفتِ؟ المدوَّنة كانت رائعة».

مــرَّرت أصابعهــا عــلى صــدره: «إنهــا حكايــة طويلــة.. طويلــة وحزينــة».

-«ألا تلهمكِ الحكايات الحزينة؟».

هـزت رأسـها نفيًـا: «هنـاك حـزن يلهمـك ويدفعـك للأمـام وهنـاك حـزن يوقفـك مكانـك للأبـد». نظـرت لعينـه مطـولًا وأردفـت: «وقـد تعرضـت للنـوع الثـاني».

-«ربما تعودين يومًا ما.. سأشجعك على هذا دائمًا».

-«أوه، لقد تذكرت!».

نهضـت مـن جلسـتها عـلى السريـر وترجلـت عاريـة لـرف الكتـب بغرفتهـا، التقطـت كتابًـا وقفزت بجـواره وقالـت: «هذا كتـاب يجمـع سـبع قصـص مـن حكايـات ألـف ليلـة وليلـة».

-«تعرفين ألف ليلة وليلة إذن».

-«هل يمكنني أن أقرأ لك قصة حتى تنام؟».

ضحك: «شهرزاد!».

-«نعـم يـا مـولاي!». أضافـت: «لم أقـرأ منـه قـط سـابقًا، كنـت أبحـث عـن شـهريار خـاص بي.. ولحظـي فإنـه عـربي!».

ضحك مجددًا، ثم قال: «شهريار جاهز».

جلسـت عـلى ركبتيهـا وفتحـت دفتـي الكتـاب، فيـما جلـس لاشـين وبـدأ يسـتمع لهـا وهـي تقـرأ قصـة الأمـراء الثلاثـة بطريقتهـا الرائعـة، كانـت القصـة تحكـي عـن تنافـس ثلاثـة أمـراء للـزوج مـن ابنـة عمهـم الأمـيرة (نـور النهـار) ويشـترط السـلطان والـد الثلاثـة أن مـن يحـضر غرضًـا عـالي القيمـة

هو من سيتزوج منها، فيجتهد الثلاثة لإحضار أثمن ما يقدرون، البِّساط السحري وتفاحة ذات قيمة شفائية واسطوانة سحرية تعرض للناظر أعمق مخاوفه.. يسمع الثلاثة أن الأميرة عليلة فيتعاون الثلاثة على إنقاذها..

قاطعها بمنتصف الحكاية: «شهرزاد.. أعتقد أنني سأنام الآن!».

حدَّقت عيناها تجاهه: «الآن».

اقترب منها وأغلق الكتاب: «ليس قبل أن أحكي لكِ حكاية خاصة بي». قبلها، أوقفته تسأله: «هل ستعود إلى مصر؟».

-«أمامي شهر ونصف على ما أظن».

-«لن أراك مجددًا حينها».

-«فلتأتي معي لمصر.. فلنعش هناك.. تقصين عليَّ القصص يوميًا وأنا أستمع».

-«أعتقد أنني.. لم يعد لديَّ شيء أفعله هنا بعد رحيل جينفر».

-«جينفر؟».

-«أنا موافقة.. سنعيش في مصر!».

***

-٧-

(عصام)

عندما انحرفت شفتا والدته إلى اليسار، وبدأت عينها تسقط الدموع ويتساقط من شدقاها اللعاب لم يستطع عصام أن يتمالك نفسه، ولم يشعر بقطعة الزجاج التي اخترقت قدمه إلَّا أمام محل البقال أثناء مهاتفته للإسعاف، حينها انتبه أنه قد نسى ارتداء حذاءه. نُقلت والدته إلى المشفى فاقدة الوعي وفي حال يرثى لها، جلس عصام بجوارها يقاوم ارتجاف أطرافه وانقباض قلبه بتلاوة آيات القرآن التي يحفظها.

جاء والده وقد كان رجل ضخم الجثة ذو شارب كثيف وجلباب أزرق لا يخلعه وسبحة بيده اليُسرى، نظر لعصام ثم سأله: «كيف حالها؟».

-«ليست بخير أبدًا!».

هز الرجل رأسه وتمتم: «لا حول ولا قوة إلَّا بالله!».

نظر لها الرجل ثم مَدَّ يده يربت على يدها: «تقومي بالسلامة يا أم عصام». التفت لنجله: «ابقى بجوارها حتى تتعافى، هاتفني إن حدث شيء أتعرف رقم المحل؟».

-«ستعود للعمل في وقت كهذا؟».

-«ما باليد حيلة يا بني.. لله الأمر من قبل وبعد».

نظر له عصام بغيظ وجز على أسنانه حتى كاد يحطمها وأردف: «هي هنا بسببك أنت!».

-«...».

-«لو أنك لم تتزوج وتخبرها بالأمر بكل بساطة لما كانت هنا الآن.. والآن تتركها وترحل لدكانك».

تحركت كرات السِبحة بين أصابع أبيه ولم يرد.

صعدت الدماء لوجه عصام حتى كاد رأسه ينفجر: «لم تكن تقصر في شيء طوال حياتها.. ناهيك عن المعاملة والإهانة التي كانت تتلقاها منك بابتسامة، انظر إليها.. أهذا هو جزاءها؟».

-«شرع الله يا ولدي.. لم ولن أفعل ما يخالفه». وضع أصابعه على كتف عصام وشد على لحمه: «هاتفني أن جد جديد».

بحلـول المسـاء كانـت والدتـه قـد فارقـت الحيـاة ولأن الحـي بـاقٍ حتـى يناديـه المـوت استـمرت عجلـة الحيـاة بالـدوران. قـضى عصـام أيامـه في منـزل أحـد اصدقائـه رافضًـا الوضـع الجديـد بمنـزل والـده، في الصبـاح تجـده بالجامعـة يتواثـب مـن محـاضرة لأخـرى بنشـاط وبالمسـاء تجـده يعمـل بإحـدى محـلات تأجـير شرائـط الكاسـيت والفيديـو وهـو مـا أكسـبه طريقـة جديـدة لمـلء أوقـات الفـراغ وتشـكيل ثقافـة موسـيقية وسـينمائية لا بـأس بهـا، ولكنهـا وكـما كان يخشـى لم تكـن كافيـة لتغطـي كل أوقاتـه..

***

(سلوى)

-«كم مضى على كل ذلك؟».

-«سـنة كاملـة.. ولكنني لم أسـتطع الاسـتقلال عـن والـدي بالشـكل الكامـل بعـد.. مـا زال يربطنـا الـدم!».

-«الدم!؟».

أشار لشريان يده: «الدم!».

ضحكـت سـلوى: «خطـر ببـالي أنـك تريـد الانتقـام أو شيء كهذا».

لم يرد.

-«لا تقل لي أنك تفكر في هذا!».

-«فكـرت في هـذا سـابقًا، فكـرت كثـيرًا ولكنني مـا زلـت أملـك عقـلي عـلى الأقـل».

-«قلت لي أنك تريد كتابًا عن القانون صحيح؟».

اعتدل في جلسته وقال: «نعم ولكن أولًا اقبلي مني هذا».

أهداهـا حقيبـة بلاسـتيكية بداخلهـا شريـط فيديـو، قالـت لـه: «مـا هـذا؟».

-«فيلم سيعجبك.. هدية لأنكِ لم توشي بي للشرطي يومها».

-«رشوة». قالت سلوى ضاحكة.

تلعثم عصام: «لا لا، عربون صداقة».

التقطـت منـه الحقيبـة: «هديـة مقبولـة.. والآن أخـبرني لمـاذا كان يريـدك الشرطـي.. لقـد سـألتك مـن البدايـة ولم أصـل لجـواب بعـد».

-«مظاهرة بالجامعة لمناصرة القضية الفلسطينية».

تذكـرت كلـمات زوجهـا وأومأت برأسـها: «لديك مشـاكلك الخاصـة فـما الـذي يدفعـك لهـذا النـوع مـن المشـاكل؟».

-«هـذا مـا يقولـه لي الجميـع.. أن الأمـر ببسـاطة يمسـنا جميعًـا، مولوديـن بـه، لم أسـتطع أن أجعـل حيـاتي لـلآن أفضـل،

ولكنها على الأقل صارت بتلك اللحظة ذات قيمة.. هذا ما شعرت به عندما هتفت لفلسطين بالجامعة، إنهم يهابون الفوضى، هذا ما لاحظته الكل يبحث عن الاستقرار، ولكن الاستقرار لا يثمر إلَّا ببعض الفوضى».

-«لم أفهم».

-«تجمهر العديد من الطلاب يومها يهتفون لفلسطين، الشعارات نفسها التي قد حفظناها ولكن الأمر بالنسبة لي كان مختلفًا.. شيء ما بداخلي ارتج، ووجدت نفسي بين الحشود اهتف.. حتى جاءت الشرطة وفرقتنا فور خروجنا بالحشد من الجامعة.. حينها وجدت نفسي هنا بالمكتبة».

-«ماذا تعني بجزئية الفوضى؟».

-«أعني أنها الطريقة الوحيدة لتقدم العالم خطوة للأمام».

***

(رنا)

لم يجيبها أحمد على اتصالاتها ليومان على التوالي، تقول والدتها أنه غبي، قليل الذوق، يرفض النعمة.. لا يستحقها، صعلوك المدينة عابس الوجه لا يستحق الأميرة، ولكنها تحبه برغم من تقلباته التي لا معنى لها، وبرغم رأي والدتها فيه فقد كانت تختلق له الأعذار على الدوام - مشغول ربما

- نائم - يبحث عن عمل - رقعة بيضاء بقلبها لم تتلوث بأفعاله الهاملة بعد، بحثت كثيرًا عن إجابة شافية للتبرير، سلسلة لا تنتهي من الأسباب الخالية من المنطق تتفوه بها وتصدقها كل دقيقة.

ربما الإهمال نفسه - تقول لنفسها - أوليس بقلب كل امرأة معدن لا يلين إلَّا بالقسوة!

كيف ستدرك انها امرأة أن لم يسقط الرجال بفخ حُسنها ودلالها؟

الرجل الذي يهملها هو فقط لم يقع بفخها بعد، صعب وكل صعب يُبتغى!

تزينت لساعات امام المرآة، وهاتفته مرتين بلا استجابة، فكرت بزيارته ولكنها تراجعت عن الفكرة، أن لم تكن مرغوبة منه فلن يزيدها زيارته إلَّا شعورًا بالاستياء من نفسها.

أرسلت لها (مريم) صديقتها صورة على تطبيق واتس آب، وأضافت: «لقد رأيتهم صباح اليوم على الكورنيش.. هل تعرفينها؟».

أمعنت رنا بالصورة لثواني، ابتسمت بحسرة وأجابتها: «إنها بنت خالته القعيدة».

***

(نور)

كان باب شقة أحمد مفتوحًا، اندفعت نور والكتاب على قدماها فوق الكرسي وقالت: «لقد قرأت الرواية ولكنني وجدت فيها..!». قطعت حديثها عندما وجدت رنا جالسة على الأريكة ودموعها تنساب على وجهها وأحمد واقفًا أمامها ساندًا ظهره على الحائط، رفعت رنا عيناها تجاه نور ونظرت لأحمد بشيء من الغضب، التقطت حقيبتها وغادرت المنزل..

-«هل ستتركها ترحل؟». قالت نور.

-«إنها غاضبة من الأفضل أن أتركها لتهدأ».

أومأت برأسها ثم أدارت عجلة الكرسي تجاه الباب.

-«نور!».

توقفت.

-«هل كان هناك شيء ما؟».

-«لا.. لا شيء، فقط أردت إعادة الرِّواية لك!».

جلس أحمد على الأريكة وأمسك برأسه، نظرت له نور ثم لفت الكرسي تجاهه وتحركت: «هل تحتاج للحديث؟».

-«أعتقد أنني سأنفصل عنها بالطريقة الأسوأ».

-«الطريقة الأسوأ!».

زفر: «حسنًا لا تهتمي.. أخبريني هل أعجبتك الرِّواية؟».

أومأت برأسها.

-«هل تريدين الجلوس على الأريكة؟».

أومأت من جديد.

حملها من فوق الكرسي وبهدوء وضعها على الأريكة، وعدل من وضع قدماها، وتبادلا نظرة طويلة لم يفهما معناها، ابتعد أحمد عنها وابتلع ريقه: «الشاي.. ثم تحكين لي عن الرواية اتفقنا؟».

-«اتفقنا».

ذهب ليعد الشاي، فيما اخفت نور ما وجدته داخل الرواية بجيوب سترتها..

***

(لاشين)

خلعت كارين سماعات الأذن وقالت: «لم أفهم شيء ولم تعجبني».

-«من البديهي ألا تفهمي شيء، ولكن كيف لم تعجبكِ؟ انها المفضلة دومًا لنا كمصريين، إن كنتِ تريدين العيش في مصر فعليكِ أن تحبيها أولًا».

-«لم ولن أحبها وعليك تقبل ذلك».

-«دعكِ من أم كلثوم.. ماذا عن باقي الأغاني؟».

-«بعضها جيد وبعضها لا».

-«الأفلام؟».

-«مشاهدتك تترجمها لي لفظيًا كان يضحكني».

-«حسنًا.. أنا متفائل.. مصر ها نحن قادمون!».

كان مقهى العربي مكتظًا بالجالسين، نظر لاشين حوله ثم همس لها: «ما رأيك بالرحيل؟».

-«هيا بنا».

متشابكي الأذرع كانا يمضيان بشوارع المدينة الكئيبة لساعات، أدفأهما التجوال والحديث والقبلات بين الحين والآخر، سألها لاشين عن جينفر، الاسم الذي ذكرته كارين على فراشها سابقًا.

أجابت: «كانت أعز أصدقائي، ولكنها رحلت مُنذ شهر ونصف».

-«سافرت؟».

-«انتحرت!».

توقف لاشين عن الكلام.

أكملت كارين: «لم تفصح عن السبب، ولكنني أشعر بالذنب تجاهاها دائمًا، قبل موتها بأيام كانت بحاجة لي، ولكنني لم أستطع أن أكون موجودة.. وبعدها رحلت.. ربما.. ربما كان بيدي أن أغير مصيرها للأفضل!».

التقطت لاشين أصابعها بين أصابعه: «لست المسؤولة عن موتها، لقد كان مُقدرًا لها.. عندما نرحل لمصر ستنسين صدقيني!».

-«ربما لا تفهم ما يدور بي!».

-«بلى، أفهمه جيدًا.. الأيام تمحو كل شيء».

ابتسمت.. ولمحت كارين جينيفر تسير بالأفق!

***

-٨-

(سلوى)

كازابلانـكا كان اسـم الفيلـم، شريطـه أسـود ذو حـواف بيضـاء، دسته بفـم جهـاز الفيديـو وبـدأ يعـرض مـا بـه عـلى الشاشـة، تأكـدت مـن أن رأفـت يغـط في نـوم عميـق، لسـبب مـا لم تحـب مشـاركته مشـاهدة الفيلـم، جلسـت عـلى الأريكـة، وبـدأ عرضهـا الخـاص..

في الصبـاح تنبهـت سـلوى أنهـا نامـت بمنتصـف الفيلـم، إنـه فيلـم جيـد ولكنـه بطـيء الإيقـاع، عميـق المعنـى، خلعتـه مـن جهـاز الفيديـو وأعادتـه لحقيبتهـا بجـوار كتـاب قصـص فيرجينيـا وولـف.. لم يكـن رأفـت قـد اسـتيقظ بعـد، ولم تكـن هـي قـد نالـت كفايتهـا مـن النـوم..

في المكتبـة قـرأت قصتـان مـن كتـاب فيرجينيـا وولـف وأكملـت فصـل مـن روايـة قشـتمر، كان يومًـا روتينيًـا ممـلًا،

غلبهـا النُّعـاس لقيلولـة قصـيرة لم تكمـل خمـس دقائـق، رأت فيهـا عصـام مُكبـلًا بالحديـد داخـل غرفـة لا مخـرج منهـا، رأتـه يحـاول قـول شيء مـا، يحـرك شـفتاه بـلا حديـث، يحـاول الـصراخ بـلا فائـدة، نظـر لهـا وحاولـت عينـاه أن تقـول شيء ولكنهـا لم تفهـم، هبـت لفـك قيـوده، فألصقتهـا جنازيـر الحديـد بالحائـط، هـي أيضًـا مقيـدة، حاولـت تحريـر نفسـها فلـم تسـتطع.. صرخـت.. واسـتيقظت تتسـابق ضربـات قلبهـا وتتسـارع أنفاسـها، ارتشـفت القليـل مـن زجاجـة الميـاه، قرأت آيـة الكـرسي وجلسـت تحـدق ببـاب المكتبـة، ولكـن زائرهـا لم يـأت اليـوم..

عندمـا عـادت للمنـزل كان رأفـت قـد اعـد وجبـة خفيفـة مـن المعكرونـة والبطاطـس المقليـة، جلسـا يتنـاولان الطعـام بينـما عقلهـا لا يكـف عـن التفكـير بعصـام وبالكابـوس الـذي رأتـه، وللمـرة الأولى منـذ تزوجـت تشـعر انهـا تريـد مشـاركة مـا تشـعر بـه مـع احدهـم، تشـعر بانهـا ودت لـو أن كفًـا يربـت عـلى كتفهـا الأن.. الأن أكثـر مـن أي وقـت مـضى!

تركـت الملعقـة وبـدون مقدمـات سـألت زوجهـا المنشـغل بالطعـام: «رأفـت.. هـل لديـك أصدقـاء؟».

ابتلـع مـا بفمـه مـن طعـام وابتسـم: «نعـم لـديَّ صديـق طفولـة أراه مـن وقـت لأخـر».

-«جميل». عادت تتناول طعامها..

-«لماذا تسألين؟». قال لها.

-«أعتقد أنني أفتقد أصدقائي».

-«وأين هم؟».

لوت شفتاها: «لا أعرف.. أعتقد أنهم قد نسوني أو شيء كهذا.. الدنيا تلاهي!».

-«بالمناسبة.. عبدالفتاح زميلي بالعمل سيتقاعد خلال أيام عن العمل وقد دعوته هو وزوجته على العشاء.. سيكونان هنا غدًا».

-«حسنًا.. هذا رائع!».

-«ستكون ليلة لطيفة.. ربما زوجته تصير صديقتكِ».

زارها عصام باليوم التالي، كانت زيارة قصيرة، عانقته عيناها وقبلها شوقه.. قصت له الكابوس فقال بتعجب: «حديد!».

-«لم أستطع نسيان الكابوس.. ومن الجيد أنك جئت اليوم.. كنت قلقة من أن يحدث لك أمر ما».

مرت لحظة صمت قاطعها بضحكة قصيرة: «لا كوني مطمئنة أنا بألف خير».

-«أتمنـى ذلـك». نظـرت لسـاعتها، فأردفـت: «أعتقـد أننـا سـنغلق المكتبـة الأن، لقـد تأخـرت عـلى كل حـال».

-«هل يمكنني..!».

حدَّقت به: «يمكنك ماذا؟».

-«حسنًا.. هل يمكننا أن نشرب القهوة في مكان ما؟».

ابتسـمت ولم تـتردد برفـع اصبـع بالهـواء: «لسـاعة واحـدة فقـط.. اتفقنـا؟».

ابتهج وأومأ برأسه مرتين..

كان مقهـى سـياحي بمحطـة الرمـل، جلسـا يحتسـيان القهوة أثنـاء حديثهـما عـن الأفـلام وكازابلانـكا بالخصـوص، اعترفـت لـه أن الفيلـم قـد اثـار مللهـا وانهـا نامـت بمنتصفـه فأخبرهـا بـضرورة الصـبر عليـه وأنـه سـيعجبها بنهايـة المطـاف، وعندمـا نظـرت لسـاعة يدهـا مصادفـة اكتشـفت أنهـا قـد تأخـرت سـاعتان ونصـف.. ذهلـت لثـواني، وحملـت حقيبتهـا وقالـت لـه: «يجـب أن أرحـل الآن لقـد تأخـرت!».

-«حسـنًا يمكنـكِ الاتصـال بالمنـزل مـن إحـدى الأكشـاك وإخبارهـم أنـك سـتتأخرين قليـلًا لا مشـكلة!».

-«صديـق زوجـي سـيزورنا اليـوم، ليـس لـديَّ وقـت للأسـف».

-«صديق من!؟».

تعجبت وابتعلت ريقها ثم أردفت: «أولم تكن تعرف؟!».

لم يرد..

ابتسمت: «حسنًا.. عصام أنا امرأة متزوجة.. أرجو ألا يشكل ذلك فارقًا في صداقتنا».

رفع عينه تجاهها: «لا لا.. لا مشكلة بالتأكيد.. أتمنى أن ألقاه يومًا لابد أنه رجل رائع!».

-«ليس كثيرًا صدقني».

***

(أحمد)

لم يتفاقم الأمر كثيرًا، وعلى عكس ما توقع فقد حُل سريعًا، وربما أسرع مما كان من المفترض له أن يُحل، رنا تسامح دائمًا، تعتذر حتى ولو لم تكن مخطئة، تنسى الإساءة بالبسمة وتغسل حزنها بالبكاء، ما أقبح السماح حين يُعقد من الأمور، في نهاية جلسة جمعتهم بعد مكالمة من والدتها أوضح فيها أحمد علاقته بنور، قالت رنا بالكثير من اللطف: «لنبدأ صفحة جديدة». وأضافت سؤالًا لتطمئن: «ولكن أولًا أخبرني هل تشعر بشيء تجاهها؟».

-«بالتأكيد لا!».

أمسكت بيده وأفصحت كالأسيرة: «أحمد.. ربما لست الأفضل أو الأجمل.. لست من تمنيت أن تلقاها يومًا ولكنني أحبك بصدق». انحنت وقبلت يده..

تنهد بضيق ورفع رأسها بكلتا يداه: «رنا.. تلك هي المشكلة!».

-«إنني أحبك؟».

-«لا.. المبالغة هي المشكلة.. أنتِ لا تحبينني كما تعتقدين.. أنت تحبين الفكرة نفسها».

-«لا أفهم!».

ترك رأسها واسترخى على الكرسي، تثقل الهواء حوله وكأنه يسبح بين الصخور، أشعل سيجارة وأشاح بنظره بعيدًا..

-«أحمد.. هل تحبني؟».

لم يرد.

-«ألهذا الحد سؤالي صعب؟».

-«أخبريني ما الذي يعنيه لكِ الحب؟».

-«الشعور بالأمان.. الراحة.. الـ...».

قاطعتها: «كفي عن تكرار ما تسمعين أرجوكِ.. لست جنديًا كي أوفر لكِ الأمان.. أي أمان تقصدين هل نعيش بالصحراء!».

حدقت به، أخذ نفسًا طويلًا من سيجارته واعتدل في جلسته: «أسمعيني.. نحن نحب من يوفر لنا ما ينقصنا ليس الا.. هل تفهمين؟ دعكِ من كلام الأفلام الذي أكل رأسك.. أنت تكررين ما يفعلون فقط ليس إلا!».

-«وما الذي ينقصك أنت ووجدته فيَّ؟».

لم يرد، دهس سيجارته: «لنبدأ صفحة جديدة يا رنا».

-«هل ما زلت تحبها؟».

-«من تقصدين؟».

-«التي أكلت رأسك فجئت لي بعدها».

-«انتهى كل شيء منذ زمن».

-«قالت لي والدتك أنك ما زلت تحتفظ بصورها داخل كتبك».

-«كل شيء انتهى يا رنا».

-«أنت تكذب».

-«أخبرتك أن كل شيء قد انتهى!».

(لاشين)

لم يتبقى إلَّا أسبوع على عودته لمصر، لا ينكر أنه قد اشتاق لها، ولكنه الآن سيعود لها ويده بيد كارين، يتخيل أحيانًا فرحة أمه بها، هل سيكونان على توافق؟ يعتمد الأمر على مدى لطف كارين وتقبل أمه لها، «ما من أم تحب زوجة ابنها على أي حال» يقول له خاله، ثم يضيف بعد التقاط الأنفاس من لي الشيشة: «ولكن كارين طيبة وبنت حلال.. ستحبها أمك بلا شك، فقط عليها أن تتعلم القليل من العربية».

كارين لا تعرف شيئًا عن العربية بطبيعة الحال، كتب لاشين لها بعض الكلمات العربية بحروف إنكليزية لتحفظ نطقها كالشكر والأسف والقاء التحية.

هاتفته بالمساء كان يزاحم البكاء صوتها، طلبت منه الحضور وبرغم الثلوج والبرد وكآبة الليل بلندن والمسافة المقطوعة فقد حضر بعد اقل من نصف ساعة، جلس أمامها على السرير وأمسك بيدها: «ماذا بكِ؟».

مسحت عيناها والتقطت سيجارة من علبتها وأشعلتها: «لقد رأيت جينيفر هنا، كانت تقف بجوار الباب.. ابتسمت لي ثم رحلت..».

-«مرة أخرى يا كارين..ألا يمكنك تجاوز الأمر؟».

-«لا.. لا يمكنني نسيان شيء!».

بكت وزفر لاشين ثم فتح ذراعاه واحتضنها، ربت على شعرها وتمتم: «كل شيء سيكون بخير.. لا تخافي».

-«لقد قالت والدتها أن روحها ستطارد السبب في موتها.. أنا السبب يا لاشين!».

-«لا.. أنتِ لست السبب».

-«لم أصغي لها يومًا.. ربما لو كنت أصغيت لها لما كان هذا سيحدث».

أمسك برأسها بين كفاه وقبل جبينها: «ما رأيك بالخروج قليلًا».

أومأت برأسها، مسح دموعها وقبلها، وهم يجمع ملابسها من الغرفة: «هيا، ارتدي ملابسكِ».

تأبطت ذراعه أثناء السير، سألته: «لِمَ قبلتني هنا؟». أشارت لجبينها.

-«رأيت تلك الحركة بأحد الأفلام».

ضحكت، وأراحت رأسها على كتفه: «لماذا رحلت جينيفر في رأيك؟».

-«لم أكـن أعرفهـا، ولكـن بنـاءً عـلى مـا قلتـه فإنهـا كانـت تعـاني مـن الاكتئـاب أو مـا شـابه».

-«أشـعر بالأسـف لأننـي لم أصغـي لهـا، أشـعر أننـي جـزء مـن الأسـباب التـي دفعتهـا لفعـل هـذا».

جلسـا عـلى الرصيـف، وهاتفـه خالـه سـعد يطمئـن عـلى حالـه، أخـبره أنـه مـع كاريـن وأن كل شيء بخـير، التفـت لكاريـن وسـألها: «مـا رأيـك بقضـاء الليلـة في المقهـى؟».

هزت رأسها نفيًا.

فقـال لخالـه عـبر الهاتـف بالعربيـة: «سـأقنعها بذلـك.. فقـط انتظرنـا». وأنهـى المكالمـة.

-«لاشين لا تتحدث بالعربية أمامي لا أحب ألَّا أفهم شيء».

-«كنت أخبره أنني سأقنعكِ بقضاء الليلة بالمقهى».

-«أخبرتك أنني لا أريد ذلك».

-«كارين.. هل أنتِ بخير؟».

-«وماذا تظن؟».

اتسعت عيناها تجاه شيء بنهاية الشارع..

-«أظن أنكِ لستِ بخير أبدًا».

-«جينيفر!».

-«ماذا؟».

أشارت: «إنها هي.. جينيفر».

نهضت من جلستها وصرخت: «ماذا تريدين!». نهض لاشين ووضع يده على كتفها فأزاحتها وكالسكيرة ركضت، ركض لاشين خلفها ينادي باسمها ولكنها كالمسحورة لا تسمع ولا ترى.. عبرت كارين الشارع، وقطع صوت نداءه صوت فرامل الحافلة، ومشهد كارين الغارقة في دمها بمنتصف الشارع..!

***

(نور)

فتحت والدة أحمد الباب لنور، وتركتها تدخل لغرفته، كانت الغرفة في حالة فوضى عارمة، الكتب على الأرضية، والملابس في كل ركن..

جرت كرسيها وطرقت على خشب الباب مرتين فانتبه لها: «هل تبحث عن هذا؟».

رفعت الصور بالهواء، فاندفع أحمد ناحيتهم وأمسك بهم: «كيف وصلوا لكِ؟».

-«وجدتهم داخل رواية الغريب لكامو».

زفر براحة وأعاد الصور للكتاب، جلس على السرير وأشعل سيجارة.

-«كارين كان اسمها؟».

نظر لها، فأردفت: «قرأت اسمها خلف الصور، واسم لاشين».

-«إنه اسم والدي، منذ صغري يدعوني به».

-«إنها جميلة.. كارين.. وأين هي الآن؟».

-«لقد ماتت قبل أعوام عندما كنت في لندن، إنها الصور الوحيدة التي التقطناها سويًا لذا فقد فزعت عندما لم أجدهم».

-«هل.. ما زلت تحبها».

-«لا إنها حكاية قديمة وانتهت».

-«لقد اتضح لي كل شيء الآن».

-«ما الذي اتضح لكِ تحديدًا».

-«لقد استعملت رنا لتتجاوز مرحلة تلك الفتاة ليس إلا».

لم يرد وتابع التدخين.

-«في الحقيقة.. أنت مقرف».

-«ليس من حقك أن تتحدثي معي هكذا».

رفعـــت أصبعهـــا الأوســـط تجاهـــه ثـــم لفـــت كرســـيها وغـــادرت منزلـــه..

***

-٩-

(سلوى)

تجنب رأفت سؤالها بالمساء أثناء وجود الضيوف عن سبب تأخرها، وفي الصباح كان جالسًا على الطاولة يرتشف قهوته أمام الجريدة، عندما استيقظت، مسحت على رأسها وفركت عيناها، تثاءبت تقاوم النُعاس، ألقت عليه التحية ولكنه لم يُجب، غسلت وجهها وتأملته بالمرآة، وقد بدا لها ذابلًا أكثر من أي وقت مضى، أسندت ذراعيها على الحوض وشعرت بالعصارة الهضمية تصعد لحلقها، وفي خلال لحظات كانت قد ملأت الحوض بالقيء!

عندما خرجت من الحمام كان رأفت قد انتهى من فنجانه، فجلست أمامه وداخلها شعور لم تستطع وصفه، تنهد الأخير وحك ذقنه: «سلوى.. كان لدينا ضيوف بالأمس، فأين كنتِ؟».

-«كان يجب أن أهاتفك لأخبرك أنني سأتأخر في نوبتي».

لـوى شـفتاه، خلـع عويناتـه وبـدأ يمسـح زجاجهـا بطـرف منديـل وعـاد يطـرق عـلى الحديـد: «لقـد أحرجتنـي أمامهـم».

-«أنا آسفة حقًا!».

-«إن كان العمـل سـيجعلكِ تقصريـن في واجبـات منزلـكِ فـلا حاجـة لـه». أعاد ارتـداء نظارتـه ورفـع الجريدة أمـام عينها.

ضغطـت عـلى أسـنانها: «لـن يحـدث ذلـك مجـددًا.. أكـرر اعتــذاري».

حدَّقتا عينه تتنقل بين السطور، ولسانه لا يستجيب للاعتذار..

تركتـه وبــدأت بتجهيــز الفطــور، لا يــزال أمامهــا وقــت حتـى بـدأ نوبـة العمـل بالمكتبـة وقفـت بالمطبـخ بـارد الأرضية، وانشـغل عقلهـا بليلـة أمـس، وكيـف أنهـا لم تخبر عصـام مـن قبـل بزواجهـا، وربـما حـدث ذلـك دون إرادة منهـا، قالـت لهـا والدتهـا في مرحلـة مـا مـن مراحـل طفولتهـا أنهـا تتناسـى عمدًا إن كان النسـيان يصـب في مصلحتهـا الشـخصية..

عـادت إلى الطاولـة وبيدهـا أطبـاق الفطـور، خـرج رأفـت مـن الغرفـة مرتديًـا بذلتـه، يربـط معصمـه سـاعته الجلديـة بمعصمـه الأيـسر متحاشـيًا النظـر لوجههـا، سـألته: «هـل سـتذهب دون فطـور؟».

-«ليس لديَّ وقت». خرج وأغلق الباب خلفه..

جلست أمام الأطباق وحاولت التهام بعض اللقيمات، ولكنها لم تستطع، شيء ما يتحرك بحلقها مجددًا هرعت للحمام وعاودت القيء مرة أخرى.. بدا لها أن ما كانت تخشاه سيتحقق!

***

(عصام)

كان في طريقه إلى مدرج المحاضرة عندما استوقفه فؤاد بإشارة من يده وابتسامة لا تبشر بالخير، وضع كفًا على كتفه والأخرى تشابكت مع يده، بعد التحية قال: «لم أعد أراك مؤخرًا بالوقفات الاحتجاجية».

-«لديَّ الكثير من الأشياء أنت تعرف عن عملي وما خلاف ذاك».

-«أه، بخصوص عملك.. لديَّ شيء وددت لو قلته لك سابقًا».

عدل من ياقة قميصه الأبيض ومرر راحته على لحيته: «إنه عمل غير مناسب لك».

شبك عصام ذراعاه أمام صدره وسألته: «ماذا تقصد بغير مناسب؟».

-«أنت تعمل بتأجير الأفلام الأمريكية.. وأنت تعرف جيدًا على ماذا تحتوي يا صديقي، تظنونه هينًا ولكنه عند الله عظيم!».

-«لديَّ محاضرة.. سأتأخر». وهم بالرحيل..

-«انتظر يا أخي، فقط لا أريد أن يأخذك لهو الدنيا، وقوفك بالاحتجاجات لنصرة فلسطين هو أمر جليل فلا تضيع ثوابه بعمل يضر ولا ينفع».

-«فؤاد.. لديَّ محاضرة ولا أستطيع تفويتها أو التأخر عليها.. فإذا سمحت».

تركه دون انتظار رد وهرع للمحاضرة..

بعد مضي ساعة واحدة بدأ يتملكه الملل، وبدلًا من تدوين الملاحظات عنها بدأ يرسم أشكالًا هندسية ويكتب اسمه المرة تلو الأخرى، لم يتوقف إلَّا حين لاحظ أنه كتب اسم سلوى عدة مرات على الورق..

***

(سلوى)

-«أنتِ في الشهر الثالث من الحمل».

-«حمل!».

-«مبروك».

تلقت الخبر كالصاعقة، كأنما نُزع قلبها وملء مكانه بالجليد، لامست بطنها، وشردت عيناها في صورة تشريحية معلقة على الحائط لأعضاء الجسد، نظف الطبيب حنجرته فانتبهت، تنهد ثم قال لها: «لا داعي أن أخبرك بضرورة الراحة وأشياء كهذه.. تعرفين ما عليكِ فعله صحيح؟».

-«نعم أعرف!».

انصرفت من العيادة ولساعتان كانت هائمة بالطرق تبحث عن وجهة ما، هاتفت صاحب المكتبة من أحد الأكشاك واعتذرت عن الحضور لليوم، انه اليوم الأول لها الذي تتخذه كعطلة منذ عملت بالمكتبة قرابة الشهرين، اتجهت إلى منزل والدتها واخبرتها بالخبر، ضمتها السيدة بين ذراعاها وزرفت الدموع، قبلتها عدة مرات، ولكن سلوى لم تكن في حالة تسمح لها بالشعور بالسعادة..

لقد أحبت عصام، أحبته كما لم تحب أحدًا من قبل، وهو السبب الذي جعلها تخفي عنه أمر زوجها قبل ليلتان، وهو الأمر الذي جعلها تفتح له مداخل التقرب منها، شعرت بالدوار فجلست على كرسي أمام الشرفة، كان الجو غائمًا، نسمة باردة تلفح وجهها من حين لأخر، وخطر ببالها خاطرة غريبة.. فيلم كازابلانكا.. قصص فيرجينيا وولف.. لم تكمل أحدهم للنهاية حتى الآن..

(عصام)

مر شهر كامل، لم يرى عصام فيه سلوى ابدًا، يمر على المكتبة مرتين يوميًا، في الأسبوع الأول كان يجد صاحب المكتبة هو المسئول، وفي الأسبوع الثاني قلل من زيارته للمكتبة، مرة واحدة في اليوم متجاوزًا الخميس والثلاثاء، وكي لا يشك صاحب المكتبة في شيء فقد استعار العديد من الكتب ليعيدهم في الأيام التالية دون قراءة أو حتى تصفح سريع، في الأسبوع الثالث تأكد عصام وبشكل نهائي أن سلوى قد تركت العمل بالمكتبة..

وفي أثناء ذهابه للجامعة في اليوم التالي، توقف أمام كورنيش البحر وداعبت صورة والدته رأسه ولم يشعر بدموعه التي انسابت على وجنتاه..

***

(سلوى)

ملء الفراغ بعد تركها للعمل لم يكن أمرًا سهلًا، ولكن على الصعيد الآخر كان هناك أشياء أهم عليها الاهتمام بها، اشترى رأفت كاميرا تصوير فوتوغرافية وبدأ يلتقط لها الصور كل ساعة على الأكثر، عندما كان يباغتها بصورة أثناء جلوسها أمام التلفاز كانت تُخفي وجهها عن الكاميرا فيقول لها: «سلوى! أريد توثيق كل لحظة حتى مجيء ولي العهد».

-«التقط له الصور كما تشاء عندما يأتي».

جـدول مياهها لم يكـن صافيًـا، بالهـا لم يكـن رائقًـا كـما يعتقـد رأفـت، أهملـت المـرآة، فرشـاة أسـنانها لم تتغـير عـلى مـدار شـهرين، باتـت أيامهـا متشـابهة، لا أضـواء تلـوح بالأفـق! عليهـا الانتظـار، لا تملـك غـير الصـبر، أربعـة أشـهر تفصلهـا عـن أعـين جديـدة تُبـصر العـالم.. ثـم مـاذا؟

***

(عصام)

مـرت الشـهور سريعًـا، وانتهـت فـترة الدراسـة، وكانتـزاع شـوكة مـن الحلـق، انتـزع عصـام سـلوى مـن قلبـه، يقـضى نهـاره في عمـل إضـافي بإحـدى المقاهـي وفي المسـاء في محـل تأجـير الفيديـو، كان يتجاهـل الحديـث مـع أحـد مـن أصدقائـه بالجامعـة، حـاول فـؤاد للعديـد مـن المـرات الحديـث معـه عـن تـرك عملـه وباتـت محاولاتـه بالفشـل، فقـد أعصابـه بالنهايـة وهـدده بـأن عقابـه سـيكون شـديدًا، اسـتقبل الأخـير التهديـد بالسـخرية والضحـك..

وفي ليلـة هادئـة غفـا عصـام داخـل محـل الفيديـو، ليبقظـه صـوت تحطـم زجـاج الفترينـه، ثـم هـوت الضربـات عليـه مـن كل جانـب، تكـور عـلى الأرض في وضـع الجنـين وهـو يـصرخ ألمًـا، فتـح عينـه لثانيـة ليلمـح فيهـا وجـه فـؤاد يقـف عـلى بـاب

المحـل وبيـده عصـا غليظـة، وغـاب عـن الوعـي..

اسـتيقظ في سريـر المشـفى، كـسر في ذراعـاه وأحـد قدمـاه وفقـد ثلاثـة اسـنان، غرفـة بيضـاء، لا يقـوى عـلى تغيـير وضعه عـلى السريـر، تذكـر أخـر مـرة رأى فيهـا وجـه أمـه، وتذكـر أن سـلوى أخبرتـه ذات يـوم أنهـا حلمـت بـه في غرفـة بيضـاء بـلا مخـرج، مكبـل بالحديـد وغـير قـادر عـلى الـصراخ..

***

(سلوى)

لـو قـضى رأفـت عـشر سـنوات يحـاول تفسـير سر بـكاءه عندمـا رأى ابنتـه لأول مـرة لمـا اسـتطاع، كانـت سـلوى ايضًـا تبكـي، الفتـاة بـين يداهـا نائمـة، ورأفـت يقبـل خدهـا: «الحمـد لله عـلى سـلامتك».

قبلـت سـلوى الفتـاة عـلى جبينهـا ثـم نظـرت لزوجهـا وقالـت: «مـاذا سنسـميها؟».

-«اختـاري الاسـم الـذي ترينـه مناسـبًا لهـا، جهـزت مئـات الأسـماء ولكنهـا لأولاد وليسـت للبنـات».

-«وجهها مضيء كالنور.. سأسميها نور!».

-«فلتكن نور».

***

-١٠-

(نور)

انتابها الملل من رؤية أمها تقرأ ذات الكتاب مرة أخرى، تجلس على كرسيها أمام الشُرفة، وكالكهنة تغيب عن واقعها في صفحات كتابها، تقرأ نور أسم الكاتبة للمرة الألف «فيرجينيا وولف» وكتابها ذو الورق الأصفر والغلاف البدائي، أخبرتها سابقًا أن والدها قد اشتراه لها أول أيام زواجهم، وفي بعض الأوقات تراها أثناء القراءة تمرر أصابعها تحت جفونها تمسح الدموع الهاربة، حاولت نور قراءته مرات ومرات وفي كل مرة كانت تكافح كي تكمل صفحة واحدة ولا تستطيع..

لم يكن نهار اليوم يحمل أي جديد، نفس الرائحة لنسمات الهواء الباردة، الصقيع ذاته، والسماء الغائمة، أغلقت دفتي الكتاب بعد حشر ورقة تشير إلى أين قرأت وقالت لها: «لقد اتفقت مع أم رامي على الغداء يوم غد.. كوني مستعدة».

-«أخبرتكِ أن الأمر منتهي قبل أن يبدأ».

-«لم ولـن أفـرض عليـكِ شيء، أعـرف شـعوركِ جيـدًا، ولكننـي أطلـب منـكِ أن تكـوني لطيفـة فقـط.. لربـما..».

-«لن أغير رأيي أبدًا».

-«أعـرف.. ولكـن.. فلنـترك الغـد ليُكتـب كـما هـو مـن المفـترض لـه أن يكـون».

مـضى النهـار سريعًـا، لم يكـن هنـاك مـا يمكـن للمـرء أن يفعلـه عـلى أي حـال، دخنـت سـيجارة بالشرفـة، ولاحظـت أن احمـد بالشرفـة المجـاورة كعادتـه، يرتشـف فنجـان قهوتـه ويُدخـن، أدارت عجـلات الكُـرسي للخلـف خطوتـين كـي لا يراهـا واعتقـدت أنهـا فشـلت في ذلـك، ولكنـه لم يتحـدث معهـا عـلى أي حـال، انتهـى مـن تدخـين سـيجارته ودفنهـا بقعـر الفنجـان الفـارغ وغـادر الشُرفـة..

كان حسـن يدفـن سـيجارته بنفـس الطريقـة، وكأن قعـر الفنجـان هـو المـكان المناسـب لانتهـاء دورة حيـاة الدخـان، مـا زالـت تذكـر ملمـس الوسـادة الهوائيـة البـاردة عندمـا فُتحـت أمـام وجههـا، تذكـر أنـه قـال لهـا قبـل أيـام مـن الحادثـة عندمـا طلبـت منـه أن تقـود السـيارة أن الوسـادة الهوائيـة الخاصـة بكـرسي السـائق في سـيارته معطلـة، ولم تُذكـره أبـدًا بـضرورة إصلاحهـا..

عندما عادت للداخل كانت والدتها منهمكة مع والدة أحمد في تنظيف الشقة وتجهيزها لضيوف الغد.. اقتربت منها والدة أحمد وقبلتها على خدها وقالت: «مبروك، يتممها الله على خير يا حبيبتي».

أومأت برأسها وأردفت: «لن يحدث شيئاً على أي حال».

نظرت لها وابتسمت: «بل ستمضي الأمور على خير إن شاء الله».

-«أتمنى أن يخيب ظنكِ».

انحنت أم أحمد لتكون على مستوى بصرها مباشرًا وسألتها: «هل هناك أحد آخر؟».

لم ترد، وتركت عيون السيدة تنخر بقلبها..

أضافت: «إن كان هناك أحد ما يشغل رأسك فدعكِ من كلام أمكِ ودعينا نتخذ خطواتنا لإيقاعه».

-«لا.. لا يوجد أحد!».

-«أحمد..».

قاطعتها: «ماذا! لا بالطبع لا!».

-«أحمد سيأتي بعد قليل، ربما هو قادر على إستخراج ذاك الذي يمنعكِ من النظر لرامي، تكلمي معه إنك كأختكِ».

ابتلعت ريقها فيما ابتسمت السيدة وقبلتها مجددًا وانضمت لأمها في عمليات النظافة..

لم يكن أحمد في مزاج رائق عندما جاء، جلس يدخن في الشرفة واحتسى كوبًا من الشاي الثقيل، تجنب النظر لنور مباشرًا للعديد من المرات، تقدمت للشرفة بجواره وأشعلت سيجارة: «آسفة على طريقة كلامي معك آخر مرة».

التقط نفسًا طويلًا من سيجارته وسألها: «هل رأمي ذاك هو الذي أخبرتني عنه عندما كنا أمام محل الزهور؟».

-«نعم هو.. شخصية لزجة ذات ميول نسائية، أراهن أنه يحتفظ بالفوط النسائية في غرفته».

ضحك أحمد فابتسمت، أردف: «يا لكِ من وقحة!».

-«هل ستترك رنا؟».

-«في النهاية هي لم تفعل شيء، ما زلت أحمل بعض الضمير هنا كي لا أكسر بخاطرها».

-«إذن فكل شيء سيعود كما كان؟».

-«أعتقد ذلك.. ماذا عنكِ؟ يوم غد كيف ستمضي الأمور؟».

-«بما إننا سيدتان بلا رجل فأغلب الظن أنك ووالدتك ستكونان حاضران».

-«لقد تلقينا الدعوة بالفعل».

***

(رنا)

ما زالت تذكر أول لقاء جمعها بأحمد، وإن كانت الذكرى كإنارة الطرق بعد منتصف الليل خافتة ومبهمة داخل رأسها، صور قليلة، ولكن يمكنها التقاط بعض المشاهد عن ذلك اليوم، أحيانًا تتمنى لو أن هناك جهازًا يستطيع تحويل ما بالذاكرة إلى صور ملموسة، كان يرتدي قميصه الأزرق، وبنطاله الجينز، وفي عناية يراقب الكتب الانكليزية من وراء زجاج المكتبة، تقدمت تجاهه، يمكنها التقاط صورة له هنا، من زاوية جانبية، مستقيم الظهر، يداه داخل جيوبه، وعيناه تسبحان بين رفوف الكتب.

تقدمت نحوه، يداها مضمومتان أمام صدرها، فالتفت لها: «أهلًا». ابتسم، ثم مد يده والتقط يدها، ابتسمت بدورها، ثم دعاها لشرب القهوة بإحدى المقاهي..

كانا قد تعرفا سلفًا عن طريق الأنترنت قبل أن يلتقيا بعدها بأسبوعين..

ارتشف فنجان قهوته وسألها عن الأشياء المعتادة، كدراستها، عنوانها، هواياتها.. وكانت بدورها تطرح الأسئلة، جلسة بسيطة مدتها ساعتان لطرح الأسئلة وتقديم الأجوبة، كانت صريحة قد الإمكان وظنت بأنها قد استطعت بشكل ما ترك انطباع جيد لديه..

بعد جلستهما كثرت الاحاديث عبر الهاتف، أخبرها إنه زار لندن قبل عام واحد، وقضى بها ثلاثة شهور، أخبرته أنها لم تغادر مصر قط، وانها ليست بارعة في اللغة الإنكليزية كبراعته، وإنها.. إنها.. إنها.. كان غامضًا، عكس ما كانت هي أمامه، بطريقة ما كانت تفيض الأسرار منها له بلا مبررات.

تقدم لخطبتها بعد أشهر قليلة، وبدأ جفاءه يظهر، مما اضطرها في كثير من الأوقات لتجاهله كليًا، وفي أوقات أخرى تنسكب أمامه وتفيض كالحبر على الورق، يُشكلها كما يشكل النحات مجسماته، ما زالت والدتها عند رأيها فيه، تقول لها كلما تحدثت عنه أنه (فارغ) جثة تتحرك، لا موت يبتلعها ولا حياة تملأها، بارد وثقيل، دماءه تجمدت في لندن وعاد لنا بما تبقى منه.. لا شيء يجمع بينه وبينها.

-«علينا بتحديد موعد للزواج». قال لها ثم أشعل سيجارة وكأنه لم يقل شيئًا.

-«هل تقصد أننا؟».

-«نعم».

احمرت وجنتاها: «لم أتوقع منك شيء كهذا.. تقول دائمًا ما لا أتوقعه منك».

ابتسم، والتقط أصابعها: «آسف على كل ما بدر مني في السابق!».

لم تجد ردًا، فأومأت برأسها عدة مرات..

-«يمكننا الاتفاق مع والدتكِ خلال الأيام المقبلة.. ربما يتم الزفاف بعد ثلاثة أشهر، ما رأيك؟».

-«في مارس؟».

-«منتصف مارس».

***

(أحمد)

كانت رنا بين المدعوين للعشاء بتلك الليلة، جاءت في فستان أزرق بسيط، مشطت شعرها بشكل مموج، وللمرة الأولى منذ فترة لا بأس بها يراها أحمد جميلة وبسيطة وهادئة، ابتسم وهو يستقبلها وأردف في أذنها: «تبدين جميلة اليوم».

ابتسمت واحمرت وجنتاها، قادها لشقة نور، طرق على الباب مرتين ففتحت أم نور، قبلت السيدة سلوى خد رنا ودعتهما للدخول، كانت والدته تُعد المائدة، نظر أحمد لساعته وأردف: «لقد تأخر أليس كذلك؟».

-«إنه على وصول». قالت أمه.

اقتربت رنا من إذن أحمد وهمست: «أين هي؟».

التفت أحمد حوله يبحث عنها وأردف: «لا أعرف!».

-«نور في الشُرفة.. تدخن منذ ما يقارب النصف ساعة». قالت والدتها..

-«نعم.. كنا نتسآل أين هي!». قال أحمد بشيء من الخجل..

اقتربت والدتها منه وقالت له: «لقد أخبرتها إلَّا تدخن اليوم ولكنها أصرت.. رامي رجل رياضي لن يطيق رائحة السجائر فيها.. هل تخبر أنها أن تتوقف عما تفعله وتحضر لهنا.. لا وقت لدينا!».

تبادل أحمد ورنا النظرات ثم أومأت رنا وأردفت: «سأخبرها أنا».

خطت رنا للشرفة ومن خلفها أحمد، ليجدا نور جالسة على كرسيها والسيجارة بين أصابعها، كانت في فستان سهرة أسود كما نزعت القرط من أنفها، وسحب الدخان

تسبح فوق رأسها، للمرة الأولى يراها أحمد في حُلتها الكاملة، وقفا بجوارها، أشعل أحمد سيجارة فيما قبلتها رنا وقالت: «مبروك!».

لم ترد نور، أضافت رنا: «أسفة على ما بدر مني سابقًا.. كنت غبية».

سحبت نور نفسًا طويلًا من سيجارتها وحدقت بها، فأضافت الأخيرة: «لا يجب أن يراك رامي تدخنين.. على الأقل ليس في المقابلة الأولى».

-«ليست الأولى، أعرفه منذ زمن بعيد، ولكنه قرر تشغيل عقله الصغير هذه الأيام».

نظرت لأحمد الذي كان مشغولًا بمراقبة الشارع وتدخين سيجارته، قالت: «ليس جيدًا أن تشم والدته فيكِ رائحة الدخان.. أليس كذلك؟».

-«من الأفضل له أن يغير هو ووالدته رأيهم ويرحلان سريعًا، الزواج للأغبياء».

ابتسم أحمد بسخرية، توقفت رنا عن الحديث وقالت لهم: «سأعود للداخل ربما يحتاجونني». التفتت إلى نور: «ستمر الليلة على خير، لا تكوني متوترة.. مبروك مجددًا». وانضمت إلى السيدتان في تجهيز المائدة.

ضحك أحمد، وأدار ظهره إلى الشارع ساندًا على الشرفة، سألته نور: «هل قلت لها شيئًا غبيًا؟».

-«لقد وعدت رنا بالزواج أمس».

لثانية شردت بوجهه بينما تجنب هو النظر لها، رفع عينه لها فتجنبت النظر له بدورها، زفرت بالهواء: «لقد قلت شيئًا غبيًا إذن!». دفنت سيجارتها بالمنفضة وغطت وجهها بكفيها وصرخت بصوت مكتوم. عاد أحمد يضحك ثم قال لها: «لِمَ يبدو عليكِ التوتر لهذه الدرجة؟ إنها ليلة وستمر، الأمر بسيط تصرفي بلطف فقط».

كان رامي ذو جسد رجل طويل قمحي البشرة ذو جسد متناسق وشعر أسود قصير للغاية، بالغ الأدب، من النوع الذي ينحني أثناء السلام وعيناه لا تفارقان الأرض أثناء حديثه مع من هم أكبر منه سنًا، جلس الجميع على الطاولة، أحمد ورنا متجاوران ونور ورامي كذلك، وجلست الثلاث سيدات متجاورين، كان المشهد ساخرًا بالنسبة لنور، دراميًا أكثر من اللازم بالنسبة لأحمد، قالت والدة رامي بشيء من التحفظ أن رامي معجب بنور منذ كانا طفلان، وما كان من نور إلَّا أن اشاحت بوجهها بعيدًا، سألت والدة نور رامي عن الرياضة التي يمارسها، فقال الأخير: «أنا سباح في الأساس.. ولكنني أحب رياضة التنس.. إنهما المفضلان لديَّ».

-«نـور تحـب التنـس.. أليـس كذلـك؟». قالـت والدتهـا جملتهـا الأخـيرة ووجهـت الدفـة باتجـاه نـور.

فأجابتهـا الأخـيرة: «نعـم.. أحـب التنـس.. أمارسـه كل خميـس وجمعـة». وأشـارت لقدماهـا.

مرت لحظة صمت أزاحها الجمع بالضحك.

كان أحمـد ينظـر لنـور مـن الحـين للأخـر بينـما أصابعـه تشـابكت مـن تحـت الطاولـة بأصابـع رنـا..

***

-١١-

(نور)

-«اسـمعيني يـا ابنتـي.. لـن أفـرض عليـكِ شيء، لـن أتـركـكِ تـرى مـا رأيتـه أبـدًا.. ولكـن فكـري فقـط».

-«أمي كفى! مر أسبوع كامل لا سيرة على لسانكِ غيره!».

-«حاولي الليلة.. تحاوري معه.. ربما!».

خرجـت نـور مـع رامـي، انـه موعدهـم الأول وفرصـة أفضـل ليعرفـا بعضهـما البعـض، كان الجـو متوتـرًا، بدايـة مـن إيقافـه لتاكسي فرفضـت نـور نظـرًا لأنهـا لـن تسـتطيع الركوب وظـل يعتـذر عـن ذلـك الخطـأ أثنـاء سـيرهما، جلسـا بإحـدى المقاهـي عـلى الكورنيـش، طلـب العصـير فيـما طلبـت هـي القهـوة، قـال لهـا: «هـل تذكريـن عندمـا كنـا صغـارًا؟».

-«لا».

-«كيف لا تذكرين يا نور، لقد قضينا أوقاتًا رائعة».

أشعلت نور سيجارة وقالت: «رامي.. كنا بعمر الخامسة».

-«وما المشكلة.. الذاكرة تبدأ من قبل الولادة».

-«وهل تذكر شيئًا قبل مولدك؟».

-«لا.. بالتأكيد لا.. أذكر اننا كنا نلعب كثيرًا فقط». أضاف بعد برهة صمت وبصوت متقطع: «بعمر الخامسة!».

-«ما الذي جعلك تتخذ تلك الخطوة؟».

-«أي خطوة؟».

-«التقدم لخطبة فتاة مشلولة».

تصبب عرقًا، فاخرج منديلًا وبدأ يمسح جبينه، أضافت بغضب: «لديك المقومات الكاملة لتظفر بأفضل النساء، لماذا تتقدم لفتاة لا تستطيع المشي مطلقًا.. فتاة تدخن بشراهة وتشرب القهوة كالصنايعية؟».

مرت دقيقة صمت، أنزل فيها النادل ما طلبا، وبدأت أم كلثوم تشدو بإحدى أغانيها..

-«أعرف ما حدث معكِ».

نظرت له فأكمل: «الحادثة.. خطيبك السابق.. حتى خوفكِ من كون الجميع يشفقون عليكِ..».

-«لا أحتاج منكِ شفقة أو غيرها».

-«لا.. لم أقصد قول ذلك.. أقصد أنني.. أنني.. معجب بكِ فعلًا!».

ابتسمت بحسرة: «وبعد؟».

-«أنا هنا لإصلاح الماضي كله.. لم اكن مستعدًا لتلك الخطوة سابقًا والآن أنا مستعد تمامًا.. عندما عرفت ما حدث لكِ قلت إنها علامة من الله، هناك فرصة أخرى لنلتقي، لأخبركِ كم أحببتكِ سرًا وكم كرهت كل من اقترب منكِ، هناك أمل دائمًا صحيح؟».

زفرت ودفنت سيجارتها ونظرت له مباشرًا: «أتدرك ما تطلبه مني؟».

-«...».

-«أنت تطلب من فتاة عاجزة عن المشي أن تتسلق معكِ جبلًا.. أنت تطلب من جثة أن تُبعث لأجلك..!».

-«فقط أعطني فرصتي.. أنا قادر على إعادتكِ كما كنتِ.. صدقيني!».

نظرت للسماء وزفرت، أغمضت عيناها لثانية وفتحتها: «حسنًا.. ما الذي يمكنك فعله يا جني المصباح؟».

-«أن أجعلكِ تمشين مجددًا».

قالت بسخرية: «واو! هذا مذهل! أخبرني كم عامًا مكثت بالمصباح، ألف عام؟».

-«أنا لا أمزح.. لقد اتفقت مع طبيب أعرفه على عملية جراحية ستعيدكِ كما كنتِ.. إنها.. إنها أنسب هدية أقدمها لكِ تعويضًا عما فاتكِ».

ضغطت على أسنانها وعضت لثتها: «هذا غباء!». التقطت حقيبتها ودفعت كرسيها بعيدًا.. هم رامي واقفًا وهو يردد: «انتظري فقط.. افهمي!». ولكنه سكب كوب العصير مما عطله قليلًا عن سيره خلفها..

***

(أحمد)

كان أحمد في شرفة منزله، تصفعه نسمات الهواء وتحرق القهوة لسانه عندما رأى نور غاضبة تجر كرسيها لبوابة العمارة، ومن خلفها وجد رامي متوترًا ويحاول ايقافها بالكلمات حتى يأس وجلس على الرصيف المقابل للعمارة، رفع رامي رأسه ليجد أحمد، فأشار له بيأس، ضحك أحمد وما هي إلَّا دقائق وكان جالسًا بجواره.

حكى رامي ما حدث معه ثم قال بلهجة بائسة: «إنها لا تصغي.. لا تفهم أنني أريد فعلًا إسعادها».

أشـعل أحمـد سـيجارة وقـدم أخـرى لرامـي الـذي رفضهـا بـكل هـدوء وتابـع حديثـه: «مـا الخطـأ الـذي ارتكبـه؟ أخـبرني مـاذا كنـت سـتفعل لـو أن خطيبتـك تعاملـك هكـذا؟».

-«ليســا متشــابهين عــلى كل حــال.. ولكــن نــور تكــره إحســاس الشــفقة ومــا فعلتــه كان تصرفًــا خاطئًــا».

-«وما الصواب؟».

هز كتفاه: «ليتني أعرف».

-«حسنًا.. أنت تعرفها جيدًا.. حدثني عنها».

-«لا أعرفها جيدًا كما تظن.. أنها متقلبة وصعبة المزاج».

-«ولكن على الأقل أنت تعرف ما تحب وتكره».

-«ليس الكثير».

-«ساعدني أرجوك.. أخبرني بأي شيء!».

تذكـر أحمـد حديثـه السـابق مـع نـور، واعترافهـا بأنهـا تكـره الزهـور جـدًا.

قـال: «إنهـا تحـب الزهـور كثـيرًا.. أحـضر لهـا الكثـير مـن الزهـور».

-«الزهور؟».

-«لا أعتقد أن هناك من يكرهها على أي حال».

-«يبدو هذا.. مبتذلا بعض الشيء».

-«ليس بالنسبة لها».

-«أتمنى فقط أن توافق على إجراء العملية.. إنه الاعتذار الأمثل لها».

-«عن ماذا تعتذر؟.. ليس لك ذنب في شيء!».

-«لا يهم أن كنت سببًا أم لا، لابد أن يعتذر لها أحد عما حدث لها حتى ولو لم يكن له دخل».

***

-١٢-

(سعد)

طرق الباب، دقائق وتلقى الإجابة، لم تستطع والدة أحمد إلَّا احتضان أخيها والبكاء، عندما رآه أحمد لم يتمالك نفسه هو الآخر ودمعت عيناه فرحًا..

أحيا رجوع خاله ذكريات لم يكن يتمنى إحيائها أبدًا، جلسا على المقهى ومعهم خالد صديق أحمد المقرب يدخنون الشيشة ويضحكون، قال سعد: «تعرفون يا أولاد كم اشتقت لتلك الملعونة؟».

-«أعرف.. كنت تدخنها سرًا في لندن.. أخشى أنها السبب في رجوعك من هناك يا خال».

ضحك خاله وضرب على كتفه مازحًا، استطرد بعد سحب الدخان لرئته: «عدت لأنني يجب أن أعود في يوم ما.. أخبرني عن عملك؟».

-«لا أعمل، لا أحتاج للعمل كما تعرف».

-«كسول كما عاهدتك». ضحك ثم أكمل: «ولكن كل هذا سيتغير.. ما رأيك بافتتاح مقهى هنا؟».

-«أهو عملك الجديد إذن؟».

-«بل عملك أنت وصاحبك».

تبادل أحمد وخالد النظرات فأكمل خاله: «انت تعرف أن زوجتي ماتت في لندن منذ سنوات، وأنا لا أملك طفلًا أو وريث.. لو مت هناك لكان موتي بلا فائدة».

سعل بعد التقاطه بعض الانفاس واردف: «سنفتتح مقهى، ولتديره أنت وصاحبك». التفت لخالد واردف: «متزوج أليس كذلك؟».

-«نعم».

-«أحب من هم يشبهونك.. المسؤولية المبكرة مرهقة ولكنها تجمد عظامك». التفت إلى ابن أخته وسأله: «وأنت.. مش ناوي؟».

-«خلال أشهر».

-«إذن فهو الوقت المناسب لتأمين المستقبل».

***

(رنا)

ضحكت رنا على دعابات سعد، كان رجلًا لطيفًا بالنسبة لها، كما أنه يُشكل ضلعًا قويًا من خطوبتها لأحمد، الآن، امام أهلها هو ليس ذاك اليتيم مقطوع النسب، هناك رجل سيجلس يدًا بيد والدها تحت مِنديل المأذون..

زادت فرحتها ضعفين عندما علمت بأمر المقهى، أن أمانيها تتحقق شيئًا فشيئًا، وقد ابتسمت لها الحياة بطريقة لم تكن تخطر ببالها، الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو رغبة أحمد بالزواج في الشقة مع والدته، وقد تفهمت رنا رغبته وحبه لوالدته..

بدأت جولاتها النسائية لاختيار ما هو أفضل لها من مفروشات وملابس وغيرها من الأشياء، كلما اشترت شيئًا ترفع عينها في عين أمها بفخر وتقول في نفسها «ها هو يفي بوعده.. هو عكس ما تتوقعين.. هو الأفضل وقد كنت على حق في اختياره».

اشترى لهما سعد بعض الأجهزة الجديدة لتناسب الوافدة الجديدة بعد أشهر، كما أعاد طلاء الشقة بالكامل واصلاح التالف بها، لقد كان قطار يمضي تجاه تحقيق ما تتمناه..

***

(أحمد)

-«أعتقد أنه مكان مناسب يا خال».

حك خاله ذقنه وأجابه: «نعم أعتقد ذلك أيضًا».

-«هل فكرت في اسم له؟».

-«ماذا تقترح؟».

-«لا شيء في عقلي». أضاف مازحًا: «سميه مقهى الخال!».

ضحك سعد وأردف: «والخال والد!». ربت على كتفه.

جلسا بإحدى أركان المكان، قال خاله: «إن كنت تريد التدخين فخذ راحتك، لا إحراج مني.. أعرف أنك بدأت التدخين بعد عودتك من لندن».

-«لا أحتاج للدخان.. لا تقلق».

-«ما زلت تذكر أيام لندن أليس كذلك؟».

-«تخطر ببالي من وقت لأخر».

-«وكارين؟».

-«رحم الله أيامها».

-«رحمك الله منها».

-«ماذا تقصد؟».

سعل مرتين ثم قال: «هل تذكر رواد المقهى جيدًا؟».

-«ليس كثيرًا».

-«قبل ساعات من يوم رؤيتك لها أول مرة كان قد رأها أحد زبائن المقهى تقود شابًا لأحد الفنادق المشبوهة».

-«...».

-«لم تكن بالنقاء الذي..».

قاطعه: «خال.. لقد رحلت فلا داعِ لتشويه صورتها داخل رأسي.. لقد أحببتها بصدق وأنا شاكر لها على ما قدمته لي».

-«وماذا قدمت لك؟».

-«الشخص الذي تراه أمامك».

-«ربنا عوضك برنا.. حافظ عليها فإنها العوض الحقيقي عما رأيت».

***

(نور)

رن جـرس البـاب، وعندمـا فتحتـه نـور كان رامـي واقفًـا بباقـة كبـيرة مـن الأزهـار، قـال وعينـاه بـالأرض: «أنـا أسـف.. اعتـذر لـكِ عـن كل مـا عانيـتِ، عـن كل مـا رأيـتِ.. اعتـذر لـكِ عـن شـعورك ولحظـات ضعفـك.. نـور.. أنـا أحبـكِ.. أحبـكِ منـذ تلاقـت أعيننـا لأول مـرة.. ولـن يرتـاح بـالي إلَّا عندمـا أراكِ قـادرة عـلى أن تصعديـن معـي جبـلًا». انحنـى ووضـع الأزهـار عـلى كرسـيها.. لم تقـل شـيئاً، تجمـدت كالحجـارة وعيناهـا مفتوحتـان عـلى مصرعيهـا تجاهـه..

تمتمت: «اذهب إلى أمك!».

تقلبـت ملامـح وجهـه.. فأردفـت بصـوت خافـت: «تعـال هنـا قبـل أن تذهـب!». وفتحـت ذراعاهـا تجاهـه، احتضنهـا وشيء مـا ذاب بعـد سـنوات مـن التجمـد بصدرهـا..

***

-١٣-

(خالد)

لم يستطع أن يكتم ضحكته، التقط لي الشيشة وأطلق لفظة اعتراض ساخرة ثم أردف: «لا يمكن التكهن بأفعال النساء أبدًا».

-«لم يكن هذا في الحسبان اطلاقًا، لقد أخبرتني أنها تكره الأزهار».

يومأ خالد برأسه.

-«الآن.. الأزهار تصنع المعجزة!».

-«أرى أن ما حدث كان في مصلحتكِ يا أحمد، على أي حال أنا لا أفهم ما علاقتك بها وما هي إلَّا شهران وتتزوج من رنا».

أشعل سيجارة وأردف: «كانت تذكرني بكارين».

أشـــار خالـــد لرأســـه وأردف: «هـــذا هنـــا فقـــط.. أمـــا في الحقيقــة فــلا وجــه للشــبه».

-«ربــما..». أشـعل سـيجارة وأكمـل: «عـلى أي حـال رامـي رجـل رائـع، وأعتقـد أنـه لا خـوف عليهـا، أعجبـت بهـا ولكننا لم نمـر بالوقـت الـكافي كـي أحبهـا.. أحبهـا رامـي منـذ البدايـة وأعتقـد أنهـا الآن تميـل لـه لقـد فعـل في أسـبوعين مـا لم أسـتطع فعلـه أبـدًا».

-«إنه مفعم بالحياة لذا فقط أعاد لها الحياة».

-«نعم هذا صحيح».

-«ما الخطوة القادمة؟».

-«افتتاح المقهى.. التحضير للزواج.. الاستقرار بشكل عام».

-«رائع.. لدينا الكثير من العمل إذن».

***

(سعد)

كان قـد اسـتأجر سـعد شـقة مفروشـة بنظـام الإيجـار الجديد في منطقـة قريبـة مـن سـيدي بـشر، لم يسـتطع أن يشـارك أحمـد ووالدتـه الشـقة عـلى أي حـال، كـما اتفقـت أختـه عـلى السـكن معـه بعـد زواج أحمـد في شـقته، وهـو الخـبر الـذي حاولـت رنـا مقاومـة سـعادتها عندمـا سـمعت بـه.

جلس على سريره وعيناه للسقف مدة نصف ساعة، ثم تسللت يداه لحقيبة السفر وأخرج منها حبلًا بلاستيكيًا رفيعًا ولفه حول رقبته وبدأ يشد عليه حتى الاختناق ثم يفلته، يلهث ثم يعيد التجربة مرة تلو الأخرى حتى احمر وجهه وبرزت عروق رقبته، زادت حبيبات العرق على جبينه وجسده، وجهز ملابسه للاستحمام، رن جرس الباب، فهم بإخفاء الحبل وسأل عمن خلف الباب فأجابه أحمد، قال له وهو يلهث: «لحظة واحدة». غسل وجهه ثم فتح الباب لابن أخته وكانت رنا برفقته، قال له أحمد عندما رآه: «هل أنت بخير؟».

-«نعم، نعم بأفضل حال.. تفضل». أشار له بالدخول.

جلس أحمد على الأريكة وجلست رنا بجواره في الصالون ثم سألهم خاله: «تشربون الشاي؟».

أجابه أحمد: «لا لا.. حاولت أن أتصل بك كثيرًا ولكن هاتفك مغلق.. فجئت كي أطمئن عليك بنفسي.. انت تختفي في شقتك بالأيام».

التقطت رنا قلم حبر فارغ من فوق الطاولة وبدأت تعبث بها بين اصابعها.

-«لا شبكة هنا، كما أنني أنام كثيرًا.. كيف يسير العمل بالمقهى؟».

-«أعتقد أننا جاهزون للافتتاح في الوقت المناسب».

خطت بالقلم الخالي من الحبر فوق جلد أصابعها، حدق سعد بها وبما تفعله، جرحت أصبعها فأصدرت آهة خفيفة، انتبه أحمد: «هل جرحت أصبعك.. خال هل لديك منديل؟».

أومأ الرجل برأسه واتجه للمطبخ، أسند ذراعاه على الحوض وتنفس بعمق، غسل وجهه مجددًا والتقط علبة المناديل وعاد بها.

-«عليك أن تأتي معنا للمقهى يا خال».

-«ربما فيما بعد، أحتاج للنوم».

عندما غادر أحمد ورنا فتح سعد حاسوبه وبحث عن الحساب الخاص برنا على فيس بوك وقضى ساعة كاملة يشاهد صورها، أخرج الحبل البلاستيكي وخنق نفسه مرتين ثم غاص في نوم عميق!

***

(أحمد)

افتتح المقهى بأول السنة الجديدة، وخلال شهر كان رواده كثر، وهو ما جعل الحالة المزاجية لأحمد في تحسن كبير، كما أن خالد قد تحسنت أحواله المادية بشكل

ملحوظ ومن ناحية أخرى فقد سمع أحمد أن عملية نور ستتم الأسبوع المقبل، ورغم فرحته بخبر كهذا إلَّا أنه قد كافح كثيرًا كي يخفي غيرته من رامي، الذي كان مثاليًا تمامًا مع نور..

جلس على الطاولة الخاصة بإدارة المقهى وأشعل سيجارة عندما لاحظ رامي قد دخل للمقهى يتلفت حول نفسه في حيرة، ناداه أحمد ودعاه للجلوس، تناولا القهوة والعصير، أسند رامي ذراعاه على الطاولة وقال لأحمد: «جئت إليك كي تجد لي حلًا».

-«تواجه مشكلة جديدة».

-«لا أعرف كيف أشرح الأمر لك تمامًا.. لقد تسرعت كثيرًا فيما يتعلق بالعملية الجراحية، إنها غالية للغاية لقد كلفتني الكثير وتبقى الكثير.. كما أنني قد اتفقت على أن تتم بالأسبوع القادم، لم يتبق الكثير».

-«المشكلة مشكلة مال إذن».

-«أريد اقتراض المبلغ من أحد ما ثم سأسدده فيما بعد».

شرد أحمد للحظات ثم قال: «سأقرضك المبلغ».

انتفض رامي: «لا.. لست هنا لهذا السبب.. أنت على وشك الزواج أنت تحتاج للمال.. فقط أرشدني لشخص أستطيع الاقتراض منه».

-«رامي.. الزواج يمكن أن يؤجل قليلًا.. كل شيء يمكنه أن يؤجل، العملية أصبحت واقعًا سيتم ولا يجب إضاعتها».

أمسك رامي برأسه ثم نظر مباشرًا لأحمد: «سأعيد لك المال.. أعدك بذلك، يمكنني كتابة وصل أو شيء كهذا».

-«أرجو أن يتم شفائها فقط».

***

-١٤-

(نور)

عندما خطت نور أولى خطواتها بعد أيام من العملية في برنامج التأهيل لم تستطع كبح دموعها، خطت ثلاث خطوات ثم قفزت في حضن أمها وانفجر الاثنان في البكاء..

وبعد أسبوعين بدأت تمشي مع عرج بسيط سيعالج ببرنامج التأهيل، تأبطت ذراع رامي أثناء السير وقالت له: «لا أعرف كيف أشكرك».

-«قلت لكِ سابقًا إنني هنا لجعل الحياة أفضل بالنسبة لكِ » .

-«دفعت الكثير في العملية.. أعدك أنني سأعيد لك المال».

-«ما من زوجة تقول هذا لزوجها».

-«لم نتزوج بعد».

-«باعتبار ما سيكون».

-«اذهب لأمك وأخبرها بهذا». وضحكت على وجهه الذي صُدم وأكملت: «أنت طيب للغاية».

جلسا بأحد المقاهي، يتحدثان عن المستقبل ويضحكان، قالت له: «من أين جئت بفكرة الأزهار؟».

-«هل أعجبتكِ؟».

-«لا أنا أكره الأزهار، ولكن ما حدث يومها هو أن القدر قد كتب كلمته».

-«غريبة!».

-«ما الغريب؟».

-«لقد أخبرني أحمد أنك تحبين الأزهار.. في الحقيقة لقد فعلت ما فعلت بناءً على ما قاله».

-«أحمد!».

-«نعم! كنت في حالة يائسة، أخبرته ما الذي تحبيه فأجابني بكل بساطة الأزهار».

نظرت لفنجانها، وشردت للحظة ثم عاودت الابتسامة: «أخبرك بهاذا أيضًا».

-«إنـه رجـل رائـع.. لقـد اقترضـت منـه نصـف ثمـن العمليـة تقريبًـا.. يتوجـب علينـا شـكره في أسرع وقـت».

-«هل دفع أحمد نصف مبلغ العملية؟».

-«نعـم.. طلبـت منـه أن يبحـث لي عـن شـخص اقـترض منـه ، ولكنـه أقرضنـي المبلـغ بنفسـه.. كـما أنـه لم رفـض أن يكتـب وصـل بالمبلـغ أو شيء كهـذا».

-«فهمت».

***

(أحمد)

كان جالسًـا في غرفتـه، عندمـا اقتحمـت نـور الغرفـة، التفـت نحوهـا بينـما مضـت هـي تجاهـه وقـال: «نـور.. لقـد تحسـنتِ كثـيرًا.. أرى انك الأن تمشـ..».

وقفت امامه مباشرًا وقاطعت حديثه بصفعه على وجهه!

يعلـو صدرهـا ويهبـط، تلهـث بصعوبـة، ثـم انفجـرت بوجهـه: «تقـرض رامـي المـال عـلى حسـاب زواجـك؟.. هـل تظـن أننـي أحتـاج لشـفقتك أو مالـك؟ هـل كنـت تـراني أحتـاج لـشيء مـن الأسـاس؟».

لم يرد.

أكملت: «ظننت انك لا تشفق عليّ مثلهم!». اكملت بعدما نظر أحمد للأرض: «ما ذنب رنا.. هل ستكون سعيدة عندما تسمع بهذا الخبر؟ أي نوع من الرجال انت؟».

-«رجل أحبك!».

حدَّقت به للحظات، تراجعت خطوتان وجلست على كرسي أمامه فأكمل وعينه لا تفارق عيناها: «رجل يقف بالساعات في شرفته عسى أن يراكِ.. رجل يعيركِ الكتب وينسى ما يخفيه داخلها.. رجل قرر الصمت والانسحاب حين راكِ تضحكين.. رجل لم يستطع أن يجعلكِ تبتسمين أبدًا وعندما جاءته الفرصة لم يتردد حتى لو كان على حساب مشاعره».

جلس على ركبتاه امامها وأكمل: «أنا أحبك يا نور.. أعرف أن الوقت قد فات لقول ذلك، ولكنها الحقيقة التي لا أستطيع إخفائها أكثر من ذلك..».

أمسك بيدها، فسحبتها ومضت تجاه الباب، توقفت ثم التفتت له: «سأسدد لك المبلغ في أقرب وقت.. شكرًا على ما فعلت.. ولن أخبر أحدًا بشيء عما قلت!».

***

(رنا)

دقت جرس الباب مرتين، توقفت بعدها والتقطت أنفاسها، فتح سعد الباب، فانحنت برأسها: «هل يمكننا أن نتحدث قليلًا يا خال؟».

-«بالطبع.. تفضلي».

جلست رنا، تنهدت ثم قالت له: «لقد اخبرني أحمد بضرورة تأجيل العُرس ولم يخبرني عن السبب.. ما الذي يحدث؟».

-«تشربين شيئاً ما أولًا؟».

-«لا.. فقط أريد أن أفهم».

-«انتظريني لحظة واحدة».

عاد بعد لحظات وبيده شنطة السفر.

جلس على ركبتاه امامها على الأرض، وبرر جلسته بأنه يرتاح هكذا أكثر، وقال: «لقد دفع أحمد مبلغًا من المال في عملية نور، هذا هو سبب تأجيل الزواج».

-«ماذا!».

-«إنه عمل نبيل يا بنتي».

امسكت رنا برأسها ثوان وبدأت نوبة البكاء، فلامس سعد طرف حذائها وقال: «لا تبكين.. لا أحب البكاء». التقط كفها، وقال: «هل مازال أصبعك مجروحًا؟».

نظرت له وسحبت يدها، ابتعد عنها خطوتان وقال: «لدي الحل».

-«ما الحل؟».

ترجل للحقيبة وأخرج منها الحبل البلاستيكي ووضعه أمامها على الطاولة، وعاد يجلس على ركبتاه.

قال بعد تنهيدة طويلة: «ماتت زوجتي قبل عامين». مد يده داخل الحقيبة واخرج سوطًا قصيرًا وضعه أمامها: «لم تكن جميلة، لم تكن ذكية، كانت قوية». أمسك بالحبل البلاستيكي ووضعه حول رقبته: «كانت تمسك بالحبل هكذا، وتشد به على رقبتي». شده على فأطلقت رنا صرخة قصيرة فزعة، فأكمل بعد أن فكه: «وتعيد الكرة مئات المرات».

قالت رنا في فزع: «ما الذي يحدث!».

-«ستتزوجين أحمد خلال أقل من شهر، لديَّ المال الكافي لحل كل المشاكل.. إلَّا مشكلة واحدة!».

قالت رنا متوترة: «سيدي أريد أن أرحل!».

-«لا.. لست سيدك.. بل أنتِ سيدتي!». مد يده بالسوط تجاهها: «أمسكيه.. أريني ما الذي تفعله السيدة بعبدها!».

أمسكت رنا بالسوط فركع سعد يقبل حذاءها، فرمته بفزع وفرت من أمامه هاربة..

***

-١٥-

(أحمد)

خلعت رنا الدبلة ووضعتها بين أصابعه، ضغط على اسنانه وقال لها: «ما الذي يعنيه هذا؟».

لم ترد، فقط اشاحت بوجهها بعيدًا عنه، عاد يسأل: «أخبريني ما السبب؟».

-«لا شيء لديَّ أقوله..».

-«بل لديكِ.. أنا أعرفكِ جيدًا.. ما الذي حدث؟».

-«فقط تمنى لي التوفيق كما أتمنى لك التوفيق».

أمسك بيدها: «رنا ما الذي حدث».

سحبت يدها ومضت..

جلس على الكرسي وأشعل سيجارة، سألته والدته عما حدث فأخبرها أنه لا يعرف..

بعد ساعتان كان في منزلها، جلس مع والدتها فقالت له أنها أيضًا لا تعرف ما الذي دفعها لهذا، وعندها خرجت رنا من غرفتها وقالت له: «انتهى كل شيء يا أحمد.. لا تحاول أرجوك!».

-«لن أرحل من هنا قبل أن أفهم ما الذي حدث لتتغيري بهذا الشكل؟».

اقتربت منه وقالت: «من الأفضل لك إلَّا تعرف.. أرجوك، ارحل فقط.. ارحل». قالت كلمتها الأخيرة بصوت يخالجه البكاء، انهارت في بكاء هيستيري داخل حضن أمها، ورحل أحمد دون أن يفهم شيء..

***

مات سعد بعد ستة أشهر بعمر يناهز الثانية والخمسين، وحيدًا في منزله، تخلص من الأدوات في حقيبته قبل موته بأربع وعشرين ساعة فقط، تاركًا المقهى لأحمد وخالد الذين أداراه كما ينبغي منذ وفاته..

تزوجت نور، ومضى على زواجها عام كامل، رزقت بطفل واقترحت والدتها تسميته عصام، وعندما سألتها عن السبب أخبرتها أنه يرتبط معها بذكرى قديمة وجميلة..

قال رامي لأحمد عبر الهاتف: «الله يبارك فيك.. سنزورك قريبًا بالمقهى.. نور تريد القاء التحية عليك».

أعطى الهاتف لنور، فأخذت نفسًا عميقًا ثم قالت: «أحمد.. كيف هي أخبارك؟».

-«بأفضل حال». ضحك وأكمل: «مضت الأيام سريعة».

-«سريعة جدًا».

-«هل تعافيت بالكامل الأن؟».

-«أستطيع الركض.. ولكن ليس لمسافات طويلة كما تعتقد».

-«مسألة وقت وستركضين لأخر العالم».

-«وماذا يوجد في أخر العالم؟».

ابتسم أحمد: «حكايات جديدة ربما..».

-«اعتقد أنه لا يوجد نهاية لشيء كالعالم أو الحكايات».

-«أخر كل الأشياء.. أشياء جديدة!».

-«نعم.. ربما!».

-«انتظر زيارتكم بفارغ الصبر».

أنهى المكالمة، وأشعل سيجارة يتابع المطر الذي يهطل بغزارة خارج المقهى، أم كلثوم تشدو بأحد أغانيها الطويلة، توقفت فتاة أمام المقهى وبعد الكثير من المقاومة سقطت على الأرض!

هرع أحمد تجاهها وعقله يردد: «حكاية جديدة.. ربما!».

-النهاية-

***

شكر خاص

لكل من ساعدني على إخراج هذا العمل:

-مارينا جمال.

-إبراهيم السيد.

-كريم أحمد.

-عصام شمس.

وبالأخص: الأستاذة «إيناس الدسوقي» والأستاذ «محمد صلاح شديد» على ثقتهم بي.

***

الكنزي
ALKANZY